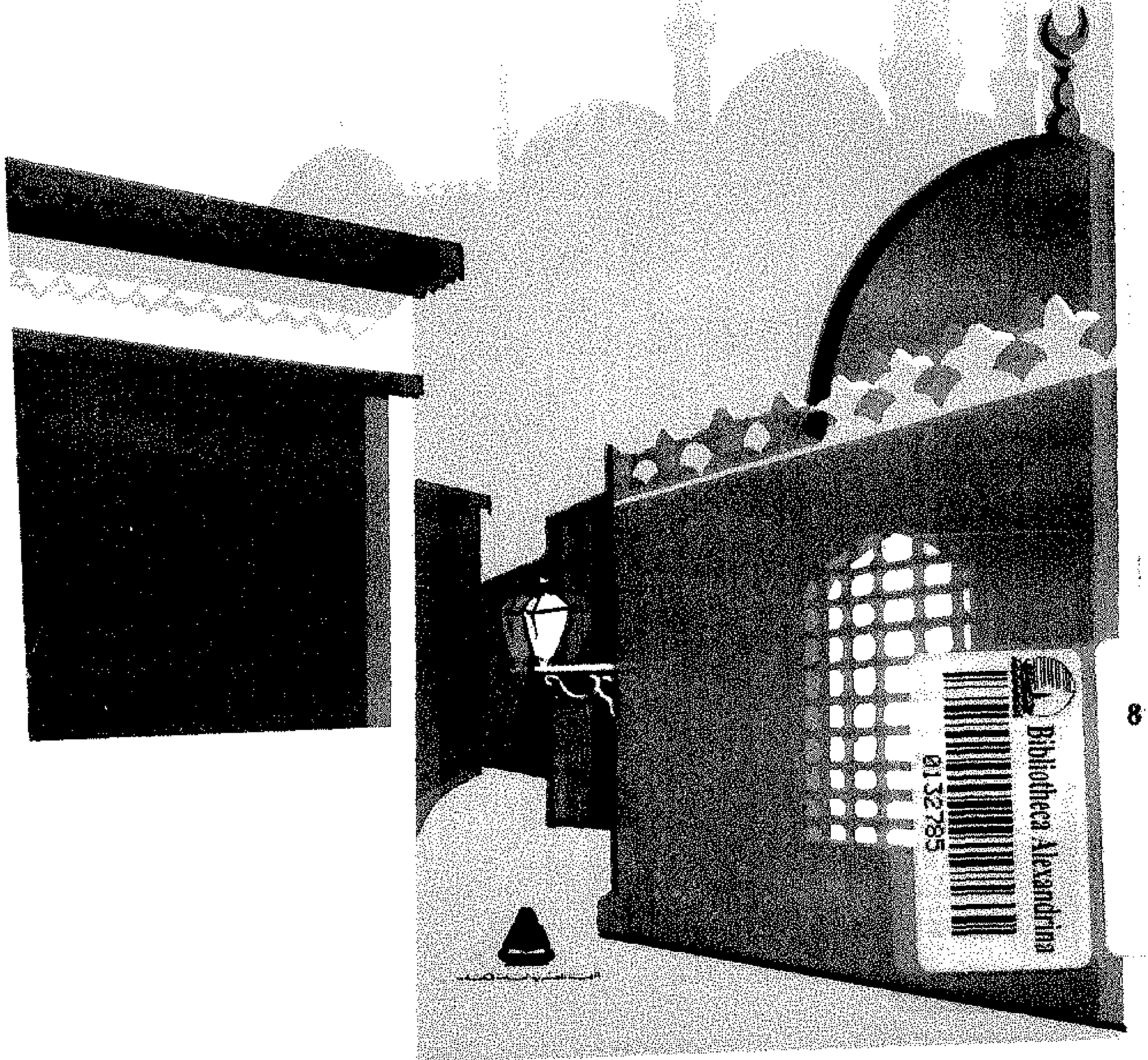
القاهرة فى حياتى

دكتورة نعمات أحمد فؤاد



8

القاهرة فى حياتى

القاهرة فى حياتى

د. نعمات أحمد فؤاد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

تصميم الغلاف : البير جورجي
الاخراج الفني : مراد نسيم

المراجعة والاشراف الفني : عفاف توفيق

كلمـــة

من طول ما عشت في القاهرة ، وعاشت القـــاهرة في ، أصبحت مجاليها ومآسيها هي الشاغل أردده في الحديث ، وأجدده في الكتابة حتى أنه لا يكاد كتاب من كتبي يخلو منها : وقفة على فنونها (١) أو اطلالة على ربوعها (٢) أو تأريخا لرجالها (٣). أو اعلاء لتراثهـــا (٤) أو وفاء لعطائهـــا (٥) أو ولاء لنيلها ، مقصـــورا عليـــه (٦) أو انتفاضـــة من أجلهـــا (٧) .

وقد توزعت هذه الكتب خاصة ، من بين سائر كتبي ، عمري . لأنها قضايا عشتها ألما وصراعا ولهفة ثم فرحة فقد كتب الله لي فيها ، النصر على قوى البغي جميعا ، فانتصرت مصر بالكلمة العزلاء ولكنها ، بقوة الحق أمضى من كل سلاح .. انتصرت مصر بما فيها ، على مسـيرة تاريخها كله من اصرار ، وطاقة استمرار .. وانتصرت ، مصرية ، بما في من وراثاتها ، وبما علي من أفضالها وعطاءاتها ..

---

(١) كتاب (أم كلثوم وعصر من الفن) .
(٢) كتاب (في بلادي الجميلة) .
(٣) كتاب (قمم ادبية) .
« (الجمال والحرية والشخصية الانسانية في ادب العقاد)
« (أحمد رامي قصة شاعر وأغنية) .
« (أدب المازني) .
« (ناجي الشاعر) .
(٤) كتاب (التراث والحضارة) .
« (الأدب والحضارة)
(٥) كتاب (شخصية مصر) .
(٦) كتاب (النيل في الأدب المصري) .
(٧) كتاب (صناعة الجهل) .
« (أعيدوا كتابة التاريخ) .
« (قبة الامام الحسين وقضية الحكم) .
« (كتاب مشروع هضبة الأهرام أخطر اعتداء على مصر

وكان من طبيعة الألم والأمل أن يحفرا فى النفس آثارا لا تمحى ، فتداخلت هذه الكتب بين الحين والحين فى هذا الكتاب سـطورا هنا ، وسطورا هناك فقد غدت هواء أعيش عليه ، والحى تتساوى أنفاسه عنده بلا تحديد .. وهى تتتابع تحفظ حياته ، وتنسج أيامه .

وايامى حروف

وحروفى أيام ؟

د. نعمات احمد فؤاد

القاهرة فى حياتى

نقطة تحـول :

أتممت دراستى الابتدائية فى بلدتنا مغـاغة من أعماق المنيـا بالصعيد . وأتممت معها حفظ القرآن الكريم . ولما كانت بلدتنا ليس فيها مدرسة ثانوية للبنات فى ذلك الوقت ، فقد اتجه والدى الذى كان يتحمس لتعليم البنت وله فى هذا كلمة محفورة فى ذاكرتى . كان يقول (البنت المتعلمة تدل على الأسرة أكثر من الولد) .. ومعه الحق ، فان الأسر المصرية جميعا تهتم بتعليم الصبيان من بنيها وهنا يكون تخير الأسرة التى تحتفل بتعليم بناتها . هنا موقف ودلالة تقول .

كنا نريد مدرسة ثانوية بها داخلية فاستشرفنا الى مدرسة حلوان الثانوية للبنات . هذه المدرسة علامة ونقطة تحول فى حياتى عرفت فيها كيف تكون رسالة المدرسة ، وعرفت فيها حلاوة التفوق ، وعرفت فيها الأثر البعيد للرعاية والجزاء والتقدير ، وعرفت فيها ، بحكم الداخلية ، الخلوص للدراسة والتحصـيل الذى طبقته بعد هـذا فى حياتى فعرفت معنى الخلوص للعلم والعـكوف عليه فامتـلأت حياتى ، كبيرة ، بالقراءة والكتابة والرحلة والندوة والقيم الجادة بقدر ما أستطيع .

خطوط عريضة لها تفاصيل كثيرة أتذكرها وأذكرها كاملة كأنها وقعت اليوم لا أمس .. صورة عن عينى لا تغيب . ولكنى اريد هنا أن أتحدث عن حلوان نفسها ..

كان طريقى اليها قطار باب اللوق .. كنت أفرح بركوبه واحفظ المحطات التى تتوالى بين الواحدة والأخرى دقائق معدودة .. حتى اذا

نزلت في حلوان تمتعت عيني بضاحية هادئة تحيط بها الصحراء ·· الشارع الرئيسي فيها هو الذي يصل بين المحطة ومدرسة حلوان الثانوية للبنات ·· كان هذا الشارع يبدو في عيني طويلا جدا هل السبب أني كنت أقطعه سيرا على الأقدام أو أني أتعجل الوصول الى المدرسة فقد أحببتها منذ اليوم الأول وانتميت اليها عاطفيا ·· مرة أخرى أقول بحكم الداخلية ·· لقـــد كانت بيتي الثاني ·· انتزع نفسي مرة أخرى من الحديث عنها لأعود الى وصف حلوان المدينة لا المدرســة · كان الشارع الرئيسي تكاد تعد المارة به ·· ولاحظ والدي هــذا فكان حريصا على اصطحابي الى المدرسة في أول العام الدراسي ثم اصطحابي أو من ينيبه عنه من فرع الأسرة في القاهرة عند الأعياد ومواسم الاجازات ·

حــلوان :

كانت حلوان واضحة المعالم يقصدها الناس للعين المعدنية ، والحديقة اليابانية ، والجو الصحي للاستشفاء وللشتاء ·· كانت حلوان مشتى من مشاتي مصر كأسوان والأقصر · وبها مثلما فنادق كبيرة جميلة أحدها خلف مدرستي · وكانت حلوان دارا للأسر الكبيرة ·

ويناديني الحنين اليها بعد أن بعد عهدي بها فأزورها ولكن ماذا أرى صورة غير الصورة · ومدينة غير المدينة ·· لا أصدق عيني أن الجميلة الهادئة الناعمة تعج بكل هذا الخلق ، وتضج بكل هذا الصخب ·· لقد غدت معقلا من معاقل الصناعة ·· لا بأس ولكن المصانع في بلد كمصر تمثل الصحراء $\frac{9}{10}$ منه يجب أن تقوم المصــــانع على أطراف المدن ، وحيث الصحراء تتعطش الى التعمير والحياة ·· ولكن هذا موضوع آخر ·

كانت مدرستي حلوان الثانوية هي الفصل والحديقة والملعب والمطعم والسرير والنوم واليقظة والصديقة والرفيقة والزميلة والحدوتة والحكاية والضحكة والحلم والأمل ·· كانت الشوق الى الأهل في البعد والحديث عنهم في القرب · كانت الخطاب يصلني من أبي ويصلني به ·· كانت الانتظار واللهفة ·· كانت الامتحان والدرجة ·· كانت الفرحة والبسمة ·· كانت الحقل وعمري به نبته تترعرع وتورق وتزهر ·· كانت الصبا بعد الطفولة · كانت التجربة الصغيرة ببراءتها وعفويتها وتلقائيتها وكل شيء في هذا العمر ، طفولي بريء التصرف والاحساس ·

كانت زميلاتي من القاهرة وضـــواحيها الأخرى يصرح لهن أهلهن بالخروج في نهاية كل أسبوع وكن سعيدات بهذا أما أنا فكنت أخرج على مسار العام كله ثلاث مرات ·· في العيدين وفي نهاية العام الدراسي ·

كانت تنتابني ظهر الخميس من كل أسبوع وحشة فقـــد كانت الغائبات يتركن فراغا تسكن معه المدرسة فى الخميس والجمعة بعد حركة كخلية النحل ·· وكنت أيضا أغبطهن للتغيير ورؤية الأهل على مسافات قصيرة ولكنى أعود سريعا الى دنياى الخاصة فأتخذ من الخميس والجمعة فرصة لتنظيم خطوطى فأعيد تنسيق ملابسى وكانت المدرسة تطلب من الأهل أن يزودوا البنت بست وحدات من كل نوع سواء من الملابس الداخلية أو الخارجية ·· مما كان يشكل فى عينى زحاما يحتاج الى اعادة تنسيق أو تنسيق دورى ·

الداخلية فى حلوان الثانوية :

كان الخميس والجمعة ، مجالا لنوم أطول ولو أن كل شىء فى أى يوم محدد بجرس فى وقت لا يتقدم ولا يتأخر ·· الطعام ·· اللعب ·· اطفاء النور ليلا ·· الاستيقاظ من النوم صباحا ·· الرجوع الى الفصول بعد الظهر للاستذكار ·· ولكن وجبة الافطار فى يوم الجمعة ، كانت تحين بعد موعدها التقليدى بنصف ساعة ·· لون من التغيير أو الترفيه على أى حال ·

كان الخميس والجمعة مجالا للسماح بسماع الراديو · فأتمتع بصوت أم كلثوم وسرعان ما التقط الجميع شغفى بها وولوعى لكن فريقين فريقا يسعدنى بالتنبيه الى بعد غنائها ومواعيده بل مشاركتى فى الاستماع ·· وفريقا يداعبنى بمحاولة النقد المفتعل فأنبرى للاشادة بها ·· كل هذا وأنا داخلية وقادمة من الريف لم أرها ولم أقابلها ·· كم هو حلو منعم الحب بلا مقابل ·· الحب لذاته ·· حب الجمال والفكرة والمعنى ·

ان تذوق الجمال ، نعيم احساس ونعمة من الله يرزقها السعيد · وكبرت وكبر معى هذا الاحساس حتى أنى كتبت مرة منذ شهور ان الناس يعدون الفنون بأنها فن الأدب ، وفن الموسيقى ، وفن النحت ، وفن الرسم ، وفن التصوير ، وفن التمثيل ينسون فنا هاما هو دعامتها جميعا ذلكم هو **فن الرؤية** ·

هكذا تعيش فى داخلى ·· فى أعماقى ، أيامى الباكرة ·· أيامى الأولى ·

دور الأب :

بدأ تعلقى بصوت أم كلثوم طفلة فى بلدتنا ·· حتى كنت أغلق على نفسى باب حجرتى لأخلو اليها ·· واذا كان الوقت ليلا أطفىء النور

حتى لا يشغل حواسي شيء عنهـا . كنت أستعذب الصـوت والنطق واللفظ .. لعل سر هذا أو هو السر الحقيقي أني حفظت القرآن طفلة فعرفت وأحسست ما في نطقها من صقل وحلاوة أداء . وكان الفضـل في هذا لأبي الذي حرص على تنشئتي نشأة اسلامية وأدبية .. فقد علمني القراءة .. بل علمني « الاختيار » فقد كان يقرأ ويسجل في كراسة ما يستوقفه من معان وأساليب ثم يعطيني الكتاب أو المجلة لأقرأ وحدي وبعد هذا يسألني سؤال السمير الصديق ثم يطلعني على رأيه الذي سبق له تدوينه ..

هذا الاهتمام أذكى حواسي وأشعل حماسي ، وأيقظ طموحي . عرف أبي وهو من رجال الأعمال لا التعليم كيف يشعل ، في الطفلة ، الشرارة المقدسة .

.. حلوان الثانوية تمثل ست سنوات من عمري فلا تلوموني ان وقفت عندها في هذه الصفحات طويلا .. انها كما يقول رامي قصة حبي وقصة عقلي بل قصة قلمي أيضا .

في مدرسة حلوان الثانوية ومنذ البداية أي في سنة أولى كتبت موضوع الانشاء فاذا بمدرس فصلي يطـلع عليـه المدرس الأول للغة العربية .. وبعد هذا يقرأ الموضوع في الفصل وتكرر هـذا وسرعان ما ذاع لي صيت في المدرسة .

مسابقة في اللغة العربية :

أراد المدرس الأول للغـة العربيـة أن يرسي معنى معينـا هو أن الفنون ومنها فن الأدب ، مواهب تأتي الدراسة فتصقلها وتثريها فاعلن في المدرسة عن مسابقة في اللغة العربية عبارة عن موضوع واحد تكتب فيه جميع الفصول من السنة الأولى الى السنة السادسة ويشمل هذا بالطبع فصل التوجيهية التي أطلق عليها فيما بعد الثانوية العامة . وقبل أن تعلن المسابقة وجدت المدرسة كلها طالبات وأساتذة ، الكل يجمعون أن موضوعي فقط ليس الأول فحسب ولكنه خارج المباراة ولكم يا أعزائي القراء أن تتصوروا السعادة التي يمكن أن تغمر ناشئة في بداية تعليمها .. بل بلغ الأمر أن طالبات الفصول الكبيرة كن يأتين الى مع أن سنة أولى كانت تتهيب الحديث مع الفصول الكبيرة خاصة سنة رابعـة وخامسة وسادسة . ولكن هؤلاء جميعا كن يأتين الى تطلب احداهن أن أفتح لها الموضوع على حد تعبيرها والأخرى أن أختم لها الموضوع بعبارة قوية وثالثة أن أكتب سطرين والمعنى مفهوم لقد كتبت في يوم من أيام تلك

المسابقة ثلاثة وثلاثين موضوعا وبالطبع كان كل موضوع يختلف عن الآخر تحقيقا لرجاء صاحبته وتفاديا للحرج .

وأعلنت المسابقة ومنحنى الأستاذ الدرجة النهائية وهذا لا يحدث في مادة الانشاء العربي ثم كتب لى عبارة منقوشـــة فى عقلى ووجدانى لا أنسى منها حرفا بعد السنين العديدة التى مرت عليها .

سحر التقدير :

كتب أستاذى بالمدرسة لى من الثناء ما لا أستطيع وصف نفسى به ولكنى أذكره هنا من باب القصة . وأهم من هذا من باب تزكية المدرس وتأكيد دوره فى حياة الطلاب ومن باب الاعتراف بفضل الذين علمونى ... **رحم الله شاعرنا شوقى فقد اصاب وأثاب يوم قال :**

أعلمت اشرف أو أجـل من الذى

يبنى وينشىء أنفسا وعقـولا

كتب استاذى فى كراستى :

(ستكونين زهرة فى روض الأدباء ، وماسة فى جبين العـــلماء ، وينبوعا عذبا من ينابيع البيان ، فسيرى قدما الى الأمام) .

ودوت فى المدرسة هذه العبارة التى خرجت على كليشيه (أحسنت) و (أجدت) .

كان لهذه العبارة دوى امتد أسابيع ، وتوالت بعدها عبارات هذا الأستاذ الذى أدين له حتى كانت الفصول تسعى الى قراءة ما كتب فى الموضوع الجديد . وأصبح « تقليدا » ..

انتقلت الى السنة الثانية فكان أستاذى الجديد كمن يستلم الشعلة ، يكتب لى أيضا عبارات رنانة بعد كل موضوع .

من أساتذتى من كتب لى عقب موضوع فى وصف السوق الخيرى الذى افتتحته الملكة : (أقمت من كلامك سوقا للخير) .

وكتب آخر فى موضوع شبيه (عاطفة فياضة بالخير فى أسلوب اشهى الى نفسى من تغريد الطير) لولا الحياء من الاسترسال فى كتابات الذين باركونى ورشوا على طريقى النور ، كلمات مضيئة وضيئة ، لملأت صفحات وصفحات .

ماذا صنعت بى حلوان الثانوية :

لقد خلقتنى هذه العبارات خلقا ‥ كانت كل عبارة تبنينى التزمت أى ألزمت نفسى بالاجادة ـ لأحتفظ بمستوى يتوج بهذه العبارات وألزمت نفسى بالقراءة والتعمق رغبة فى التجويد والتجديد وألزمت نفسى حتى بقواعد الخط العربى لأوفر لموضوعى الشكل بعد المعنى وألزمت نفسى بمربع من سطرين قبل الموضوع وعنوان أدبى خاص بى ثم عرفت فيما بعد أن هذا كان طابع أدباء الرومانسية فى القرن التاسع عشر ولكنى فعلت هذا بتلقائية ووحى الفطرة ٠

والزمت نفسى بتكثيف الجهد فى المواد الدراسية الأخرى حتى لا يخدش أى نقص الهالة التى أحاطنى بها مدرسو اللغة العربية فضلا عن أنى ذقت حلاوة التفوق والنجاح ٠

ومن هنا قلت أن عبارات التشجيع خلقتنى خلقا جديدا ‥ ان التقدير غذاء لروح الانسان ‥ ان قيمة الجواهر تعزا الى عين مكتشفها ٠

مرة أعاد أستاذ لى ورق الامتحان وكانت الدرجة النهائية خمسين ٠ ولكنه قال لقد جمعت درجات الأسئلة فحصلت نعمات على ٤٨ ولكنى خجلت من نفسى ألا أضع لها خمسين وهنا اقتضتنى الأمانة أن أضيف الى كل ورقة فى الفصل درجتين ٠ كم أسرتنى وطوقتنى هذه العبارة ‥ : لقد بكيت من فرط التأثر ‥ لقد كنت اعتدت على الدرجات النهائية حتى غدوت أتوقعها ولكن هذه القصة لم أتوقعها ‥ والتفت حولى بعض الزميلات يردن معرفة مكان الخطأ واذا بواحدة منهن تجمع الدرجات فتجدها خمسين وهرعت الى الأستاذ الذى أعاد الجمع واكتشف أنه التبس عليه الجمع وأنى أستحق الخمسين بدون اضافة ولكن هذا لم يقلل شيئا عندى من جميله ‥ من لفتته ذات الدلالة الكبيرة ٠

وتمر الأيام وينقضى عام دراسى ويهل عام وكل منها يحمل لى وأحمل له عناءات جديدة من هذا اللون أى خيوط ملونة فى نسيج القصة قصتى مع حلوان الثانوية ٠

وقد توجت هذه القصة بمسابقة الأدب العربى التى كانت تعقد للمتفوقين فى اللغة العربية من طلبة التوجيهية التى سميت بعد هذا الثانوية العامة وذلك على مستوى مصر كلها ٠

لم تعلن ناظرة المدرسة عن هذه المسابقة لسببين فى رأيها :

الأول : أن هذه المسابقة كل عام لم تنجح فيها بنت واحدة ٠

الثاني : وهو مرتبط بالاول هو صيانة الوقت والكرامة حتى تتفرغ الطالبات لامتحان آخر العام : التوجيهية .

وطلبت الى مدرسي اللغة العربية التكتم على موعد المسابقة .. ولكن أحدهم كان يكتم ضيقه بصعوبة شديدة ظننتها في أول الأمر ، لشيء يتعلق به فلما كان اليوم الأخير لانقضاء موعد التقدم لهذه المسابقة ثار وأعلن أنه ضامن ، اذا دخلت المسابقة أو دخلت المدرسة بي المسابقة ، النجاح بل الأسبقية بين الناجحين .

وعلمت المخبوء واكتشفت أو تكشف لي المضمر فبكيت بكاء شديداً بل انتحبت وهنا انضم الى المدرس الانسان ، زملاؤه وأساتذتي مدرسو اللغة العربية بالمدرسة .. وضغطوا على الناظرة ضغطاً شديداً لم تملك معه الا أن طلبت الى أن أملأ الاستمارة الخاصة وذهبت بنفسها وقدمتها بعد انتهاء مدة التقدم موضحة ما حدث فقبل المسئولون في الوزارة الاستمارة .

وجاء موعد الامتحان التحريري ثم الشفوي وبالطبع كان أعلى مستوى ... أعلى كثيرا من منهج الثانوية العامة .. وظهرت النتيجة فاذا بالوزارة تهنىء الناظرة والمدرسة لقد كنت الأولى على البنين والبنات لأول مرة في تاريخ هذه المسابقة وبكت الناظرة هذه المرة واختلط ثناؤها باعتذارها عما حدث والذى دفعها اليه خوفها على نتيجة شهادة اتمام الدراسة الثانوية .

كان يوما مشهودا لم ينقصه الا غياب أبي الذى كان ينتظر هذا اليوم منذ وضعت قدمي على عتبة المدرسة الثانوية ..

كان وزير المعارف في ذلك الوقت الدكتور محمد حسين هيكل صاحب (في منزل الوحي) ، (حياة محمد) ودعا الناجحين ليوزع عليهم الجوائز بالاضافة الى اعلان حقهم في مجانية الجامعة واختيار أى كلية يشاءون .

وكنت أول من تقدم الى المنصة وأول من سلم عليه وأهدى الى مجموعة كتب أدبية لكبار أدباء العصر ومظروفا به « عشرون جنيها » .. وكان هذا المبلغ يمثل شيئا في الخمسينات أو بالنسبة لمن هم في مثل سني في ذلك الوقت .

ومنذ ذلك الحين اتصلت حياتي بل التحمت بالأدب قراءة وكتابة واستشفافا وتذوقا .

كانت القاهرة :

كنت اقيم في القاهرة أو في ضاحيتها حلوان كالعابد في محرابه للناس دنياهم وله عالمه الخاص ·· أثناء العام الدراسى أقيم في حلوان أى ثمانية شهور وكانت الاجازة وهى أربعة أشهر أمضي نصفها على الاقل اقضيها مع جدتي في القاهرة وفي كل مرة أتملى القاهرة كمن يراها لأول مرة ·· وكانت القاهرة في مطلع حياتي لا تشبع العين منها كل شيء فيها يرف من الجمال ويشف من النظافة ·· كان ركوب الترام متعة ·· وركوب الأتوبيس متعة ·· كان نهارها مشرقا وليلها متألقا ·· كان الناس أعنى أهلنا الطيبين ، لا يحجب سماحتهم زحام أو رغام أو ارهاق أو املاق ·· كانوا في نعمة يرددون معها في مجالسهم « دا الى عمل مصر كان في الأصل حلواني » والحقيقة أنه ليس الى عمل مصر وحده ·· كان الانسان المصرى حتى الخمسينات ابن بلد يحب الزينة والمتعة والجمال ·· يعيشه ويوفره لنفسه ما استطاع ·· حتى القلة فيها نعناع أخضر حتى ماء الشرب فيه ورد ·· فهو ماء ورد أو ماء بالورد ·

كان الانسان المصرى قبل أن تكربه المعاناة والضغوط انسانا صافيا يحب الطرب والسماع ··

لأنه ابن حضارة طويلة منعمة ومنعمة ·

انسان لطيف أنيس كالنبات ·

انسان خصيب كواديه ونهره ·

انسان ابن طبيعته

والطبيعة المصرية ليس فيها قسوة ·· طبيعـــة لا تعرف الزلازل والبراكين والعواصف ·· حتى الصبـــحراء المصرية فيها وداعه تبـــدد الوحشة ·

الطبيعة المصرية واهل القاهرة خاصة :

سرى لطف الطبيعة المصرية ورقتها الى الانسان المصرى فكان عذبا ودودا كريما لأنه ابن خير يأتي المصريين غدقا وهم بما عندهم ، يغدقون ·

كان الحنو والتراحم في النفس المصرية والانسان المصرى يتبدى في الحديث رقة ، وفي النمنمة المصرية تحت الربع وخان الخليلى دقة ، وفي الأسطورة المصرية وفاء وعطـاء ·· فنجد فيهـــا (القربة) التى يسقى منها صاحبها ولا تفرغ كما تحكي لنا جداتنا ·

وقد عرف المرحوم قاسم أمين الذوق السليم بأنه الشعاع اللطيف الذى يهوى صاحبه الى أن يقول ما يناسب المقام ، ويتجنب ما لا يناسبه ·· والمصريون خاصة فى عصور الرخاء والنعمة يعتقدون أن مصر أم الدنيا وأم الذوق ولهذا يقولون الذوق ما فاتش باب النصر ·

ويروون فى هذا قصة طريفة يرويها بدوره الدكتور أحمد أمين ··

تقول القصة أن رجلا كان اسمه « الذوق » كان فى منتهى الظرف والكياسة واللباقة ·· كريما رقيق الحس والشعور ·· غاضبه يوما بعض الناس فعزم على الرحلة من مصر ، فلما وصل الى « باب الفتوح » مات هناك ومايزال قبره فى هذا المكان الى الآن ويعرف ضريحه « بسـسـيدى الذوق » ·

ومن أجل هذا قالوا : الذوق لم يخرج من مصر ·

كان يموت فيها حيا ·

وقدر له أن يموت بها راحلا ·

غلاب هواك يا حبيبة ·

بأسر القلب والروح معا ·

غلاب ·

كانت القاهرة عائلة متحابة ومع هذا كانت أحياء متميزة وكل حى يتعصب له أهلة من اعتزازهم به واحساسهم بالانتماء اليه ذلك الانتماء الذى فقدناه للبلد لا للحى ·

كانت مصر تزرع الحب فى الأرض وتزرع الحب فى القلب فتسمع سائرا أو زائرا أو مسافرا أو مقيما المثل الشعبى (اللقمة الهنية تكفى ميه) والمثل الشعبى (لاقينى ولا تغدينى) ·

لا يقول شعب مثل هذين المثلين الا اذا كان يستشعر جو الأسرة يستنشقه هواء يعيش عليه ·

الذوق المصرى :

هذا هو الشعب المصرى أو هذه هى طبيعة البلد · كما قلت حين كتبت عن (شخصية مصر) ·

ــ اناء واسع للماء الكل يشرب منه هو : النيــــل

ـ ومائدة واحـــدة الكل يطعم منها هي : الســوادى

وتأصل هذا فينا فقلنا : يانعيش سواء يانموت سوا ٠

من تعلقنا بالنيل تعلقا شديدا ٠٠ ومن تعلقنا بالمركب تعلقا شديدا قلنا هذا المثل ٠ والمركب في مصر محببة بما تربط بينها وبين النيل ٠ والمركب لا تتحرك براكب واحد ٠ ان ركابها جمع يلتقون في الرحـــلة والمصير ٠ وانتقل المثل من المركب الى الحياة ففهموا معنى الوحدة وروح الفريق ٠

وتواصوا وتواصلوا ٠٠ وبهذه الصفة فينا استمرت الحضارة المصرية بغير انقضاء لأن العمـــل كان أمانة تربط جيـــلا بجيل وكان مصر أسرة واحدة ، وان تعددت أسرات ٠

هكذا كانت مصر ٠٠ وهكذا كانت القاهرة ٠

كانت بنت بيئتهـــا ٠٠ والبيئة المصرية أصـــلا بنت الزراعـــة ٠٠ والزراعـــة أنبتت في النفس المصرية من المعـــاني أضعاف ما أنبتت من حبوب ٠ وعلى هذه المعاني أرست مصر حضارتها ٠٠ وطرحها بعد هذا في الصناعة والعلم والفن والأدب والدين انما هو فيوض من عالم النبـــات وعطاء ٠

القاهرة مدينة القيمة :

عرضت لبعض الأمثال الشعبية من قبل التي تتردد في مصر وفي القاهرة نابعة من بيئة مصر الزراعية مترجمة فلســـفتها في الحيـــاة ٠ وفلسفتها هذه غير منفصلة وغير مكتوبة لأنها ليست جزئية ٠ ليست من عمل الذهن وحده بل هي من عمل الانسان الكيان كاملا ومجتمعـــا بحواسه وعقله وقلبه ودمه وأعصابه على مثـــال من عالم الزراعة الذي لا تنفصل فيه البـــذرة عن الأرض أو عن الســـاق أو الفرع أو الورق أو الثمر ٠ الكل متكامل ٠

فلسفة مصر لهذا ، وبه ، تأتلف من عطايا العقل وهدايا القـــلب وومضات الشعور ، ويقظات الضمير ٠

ان القاهرة أجل وأعظم العواصم ليس من باب زهو الوطني فاني أتكلم عنها بمقياس القيمة لا الوسائل الحديثة ٠٠ أعرف أن الغرب يرفع ناطحات السحاب فاذا بالكم فيها وله تأثيره ، لا يحظى بســـحر الدقة الدقيقة في الترصيع المصري وحساسية الاتجاه في الهرم وأبي الهول ، وأنس العمارة في معابد امحتب ومساجد مصر الاسلامية بقدر محسوب لأنه أسلوب حياة طويلة روية بالدين والتقنين والمعنى ٠٠ حياة نفذت من

قديم الأزمان بل قبل الأديان وقبل الزمان بزمان ·· نفذت الى المجرد من عدل وحق ومعروف وتوجت هذا كله بالنفاذ الى الوحدانية فعرفت بهجة الكشف ، وصفاء المنبع ، وخبرة التجريب ·

وابن البلد القاهرى يحكم حياته الكيف قبل الكم وما أروعه وأصدقه حين يعبر عن ذروة ادراك القيمة بالتكيف فيقول : أنا أتكيفت · ويقصد بالكيف ، ارتفاعه على الكم ·

وهكذا مصر ·· وهكذا القاهرة كما وكيفا ·

اهل البيت :

كان يوم الجمعة فى حياة جدتى ، لأهل البيت · وكانت تصحبنى معها لأنال من بركتهم · كنت طفلة أقفز الى جانبها ولكنى عرفت معنى هذه الزيارات عندما تفتح عمرى فعمرت روحى بذكرهم وقرأت تاريخهم وصار التردد عليهم عادة لى وان كانت على مسافات بعيدة فى الزمان وليس كل أسبوع كما كانت تفعل جدتى · أزور اليوم السيدة زينب رضى الله عنها · والبسطاء الطيبون من حولى يبثون آلامهم فى ساحتها ·· ولكنى أقف أمام ضريحها فأتذكر موقفها الشامخ من يزيد بن معاوية الذى تعمد أن ينكأ جراحها ولم تكن قد برئت ، بعد ، من الجراح وأرى كيف أدخل عليها رأس الحسين قتيلا يحيا فى القلوب وتحيا باسمه دول وملوك فتتقدم تحمل الرأس تاركة المجلس بعاره وهى تحتوى الشهيد بفخاره قاصدة مصر حيث يخرج واليها والناس معه الى حدود الشرقية لاستقبالها وانزالها أكرم منزل · لقد نزل الوالى كما ذكرت على ارادة أهل مصر ونزل للسيدة زينب عن بيتـه مستجيبا لرغبتهم لتحل فيه وتحل البركة معهـا فى مدينتنا كلها ··

وهو ضريحها الآن بعد أن غدا بوفاتها مسجدا ومشهدا بما تمثل فى التاريخ العربى بل فى التاريخ الاسلامى بل فى التاريخ الانسانى أكرم ما فى المرأة من معانى الوفاء والاباء · ما من مرة زرت السيدة زينب الا تذكرت قصتها كاملة فى هذه المحنة التى لحقت آل البيت ·· تذكرت هبتها وقد هجم زبانية « يزيد » على آخر من بقى من بيتها فى موقعة كربلاء على « زين العابدين » فانكفأت على الطفـــل صارخة فى وجوههم اقتلونى أنا أولا وما قتـلوها ولـكن قتـلوا أنفسـهم بما اقترفوه ويكبر زين العابدين ويلتف الناس حوله اذ يحج البيت فى عهد هشـــام بن عبد الملك ويرى هذا الخليفة الذى لم يغن عنه ماله أو سلطانه فيتساءل فى تجاهل العارف : من هذا ؟ وينبرى له الشاعر الفرزدق :

هـذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحـرم
هذا ابن خير عباد الله كلهـم هـذا التقي النقى الطـاهر العلم
وليس قولك من هذا بضائـره العرب تعرف من أنكرت والعجم
اذا رأتـه قريش قال قائلهـا الى مكارم هـذا ينتهى الكـرم

وتضم القاهرة الامام زين العابدين كما تضم الصفوة من أهل بيته وليس فيهم الا صفى نقى طاهر علم ·· ويحج المسلمون من أنحاء العالم الاسلامى الى مكة ويوفضون الى المدينة حيث مثوى الأعظم العطرات ، ويسعون الى القاهرة حيث آل البيت يضيفون اليها ويضفون عليها وتعرف هى أقدارهم وتحفظ تراثهم وتعلى دينهم وتحمل علمهم ·· والفضل يعرفه ذووه .. والقاهرة مدينة الفضل والعلم والتاريخ والقيمة .. مدينة الأزهر الذى يضم ٣٦ رواقا تحمل أسماء البلاد الاسلامية ويتلقى أبناؤهم العلم ويلقى غريبهم المأوى والملاذ ·

انى سيده لم أتعلم بالطبع فى الأزهر ولكنه يعيش داخلى بالرؤية والسماع والقراءة والتأمل والاستشفاف وحين أتحدث عن حيـاتى فى القاهرة فان أحد خيوط نسيجى حى الأزهر الذى طالما ترددت عليه والجامع الأزهر الذى طالما تطلعت ــ اليه عمارة وحضارة ··· مسجدا ومعلما من معالم القاهرة · انها قصة عريضة تحضرنى الآن ·

تتزاحم الذكريات وكان حياتى فى القاهرة حيوات كثيرة · ولكن هل هى قصتى وحدى مع القاهرة ··· كلنا رواة هذه القصة وأصحابها · ان القاهرة لها فى كل قلب مكان ليس لغيرها مهما طوف المصرى وطاف ورأى بعد طول المطاف ·· انها القاهرة ·

خـان الخليل

بصحبة جدتى أيضا ترددت على أحياء القاهرة القديمة التى كانت ترتاح اليها للزيارة أو البركة أو الشراء · وعرفت صغيرة خان الخليل ·

هناك فى خان الخليل حيث الصـوانى الصفر المستديرة المتمنمة المحيط يرفعها على كفه ، كالحاوى ، عامل من عمال المقاهى البلدية ومنهم المتأنق الذى يضع الطاقية البيضاء المخرمة فى وضـع مائل على رأسـه تحسبها واقعة لا محالة ولكنها تظل ثابته (صنعة) ·· ويمشى كالأوزة كأنه يدور مع كورنيش الاسكندرية والطريق مستقيمة أو كأنه دراجة تسير بغير سائق ، وقد تصطك به دون أن تسقط من كفه الصينية بما حملت أو حتى يضيع من الشاى رشفة (مرة أخرى أقول (صنعة) ·

هناك حيث يخب أولاد البلد في القفاطين (الشاهي) التي يتهافت على قماشها السياح ومن في طريقهم الى أوربا خان الحسان هناك يتهافتن بدورهن على ارتدائها في السهرات ٠

هناك حيث تنصاع الفضة لليد الصناع فتشكلها أقراطا وعقودا تستهوي الكثيرات والسائحات خاصة فيسرفن في اقتنائهـا ٠٠ هناك تستطيع الآن أن تعثر على البقيـة من مهرة الصـناع في التكفيت والتطعيم ٠٠ انهم خبراء هذا الفن الذي دالت دولته وأصبح يقصد الآن للترف أو ـ الاطراف وغالبا ما يكون هواة الطراز العربي « غربيين » ٠

هناك حيث تتحلق ندوات الذكر ينتظمها رجال أطلق معظمهم لحاهم وأسبلوا جفونهم يميلون بجذوعهم يمنة ويسرة في حركة تقليدية يذكرون ويوحدون فاذا علا المنشد في انشـاده اشتدت حماسـتهم حتى ليطرد ترديدهم مع صوت جهدهم المبذول ٠

وفي خان الخليلي وما حوله (جماعية) فالصناع ٠ يتناثرون في تجمعات متناسقة والذاكرون ينتظمون في حلقـات ، والباعة المتجولون يتجمهر حولهم الناس ، والحديث على طريقة العصافير الكل يقول ولا من أحد يسمع ٠ ولعل أكثر الجميع فضولا ، النساء فهن يشتركن في كل شيء بالتعليق اذا كن سارحات ، أو النظر اذا كن خاليات ، أو ٠٠ المناكفة اذا كن شاريات ، أو المجاوبة اذا كن راضيات ٠٠ ففي حلقات الذكر يجدن بالزغاريد ٠٠ والعليمات منهن بأصول هذا الفن يتبرعن به عن طيب خاطر دون سؤال يكفي أن يمر بهن جهاز عروس في موكب من العربات الكارو ، وان كانت تغني فيه عربة واحدة ، ولكنه التباهي المتأصل فينا أو لعله الرفق بالحيوان ٠٠ يكفي أن يمر جهاز عروس لتدوي الزغاريد حتى ولو لم تعرفها المزغردات فاذا كان المار موكب العروس بلغ الجود أقصاه فترتفع الزغاريد متواصلة ومتداخلة مقتضبة أحيانا أو مسهبة مسترسلة وهذا يرجع الى طاقة الصوت وصاحبته أو لعلها مسألة حظ ٠٠ بين العرائس ٠

هناك ترى أو تسمع عن الدراويش في ثيابهم الفضفاضة ولحاهم المسترسلة وعمائمهم المتكورة وأرديتهم الواسعة وقد لف الواحد منهم حزاما زاهيا على وسطه قد تمرد عليه منتصف ثوبه كأنه يمط شفتيه فيغدو الرجل له (عب) كالذي نراه في الحقول عند جمع القطن ٠

وفي المدرسـة تعلمت أن الطريق المستقيمة كناية عن الهداية والرشاد ، والطريق الملتوية كناية عن الغواية والفساد ٠ ولعلهم استهدوا قوله تعالى « أفمن يمشي مكبا على وجه أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم » ٠

والطريق تستعمل حينا بمعنى الوسيلة ، وآنا تؤدى معنى الكماح حين يلازمها الفعل (شق) وتارة يعنى « الأسلوب » فترسم الطريق انما هو احتذاء ٠٠

وغير هذا من المجازات والكنايات والاستعارات ٠٠

طريق ٠٠ وطريق ٠٠ ألوان وأنماط ٠٠ مراتب وحظوظ وأقدار ٠٠

كانت الأجازة المدرسية أربعة أشهر نصفها كنت أقضيها فى القاهرة كما أسلفت وتحرص جدتى على امتاعى بجديد كل يوم وفى مقدمة هـــذا الزيارات والشراء والاحتفالات القاهرية بوفاء النيل وسفر المحمل ورؤية رمضان ٠

وقبل أن تسرقنى الذكريات أقف عند الامام الشافعى رضى الله عنه ٠

كم مرة زرت فيها الشافعى ٠٠٠ وأرى الكبار يقرأون الفاتحة ترحما عليه فاقرأها بصوت مرتفع لأثبت وجودى ٠٠٠ وما أكاد أفرغ منها حتى أجوب الضريح ويبهرنى تابوته دون أن أعرف تفسيره وتصعد نظراتى الى المركب أو الزورق الدقيق فوق قبته وعندما كبرت واعطيت نفسى لدراسة شخصية مصر عمقت نظرتى الى هذا الزورق الذى كنت ألهو بالنظر اليه طفلة ٠٠٠ أصبحت أرى فيه الخط الحريرى الذى يربط الفن المصرى على مسار العصور ٠٠٠ ان اليد البناءة هى هى ولهذا غدا لها طابعا ينعكس على انجازاتها فى مصر الاسلامية كمصر القديمة سواء بسواء ٠٠ ان البناء المصرى الذى رفع هذا الزورق الدقيق فوق قبة الامام الشافعى يلمح زورق آمون فى طيبة وزورق الحجاج بمده فى الأقصر وهو الاسم الحالى لطيبة القديمة ٠ أسلوب مصر هو هو على مر العصور وان اختلفت أديان ونظم وأحكام ٠

وأقرأ فيما أقرأ قول الأستاذ حسن عبد الوهاب فى كتابه (من روائع العمارة الاسلامية فى القاهرة) ان الدولة الفاطمية (أحضرت معها فى مستهل حكمها بالقاهرة بعض أساليب العمارة التونسية ، ولم تلبث طويلا حتى تخلصت من تلك المؤثرات وأصبحت لها طابع قاهرى بحت فى جميع تفاصيلها) ٠

وكان قريب جدتى شيخ مشايخ القراء ٠ وكان عالما متبحرا فى علوم الدين ٠٠٠ ولما كانت جدتى تريد أن تجمع لى الدنيا بعلومها وطيباتها معا فقد طلبت الى قريبها طيب الله ثراه أن يفقهنى فى علوم الدين وأن يعلمنى القراءات وان يستمع الى حفظى للقرآن الكريم وهنا ، لى مع العالم الجليل جلسات خصبة ٠

[والضحى والليل اذا سجى]

هذه الآية بالتنغيم غرست فى وجدانى الاحساس الموسيقى طفلة ·· وبالدماثة غرست فى نفسى معانى السلوك ·

[ولسوف يعطيك ربك فترضى]

هذه الآية عاشت معى طفلة بما تفتح من آفاق الأمل والطمأنينة · وانتقلت معى الى بيتى عندما تزوجت تتصدر فى اطارها ، حجرتى الخاصة ·

عطاء الله عندى ، كثير ·· لا أقصد المال ولكن طمأنينة النفس ، والضمير ، ومحبة الناس ، والسطور التى أكتبها ··· وبعض هذه العطايا كثير غامر لا يترجمه شىء كهذه الآية التى أعتز بها ·

[اقرأ باسم ربك الذى خلق]

عرفت من هذه الآية أن القراءة ليست نطق الحروف بل من القراءة ، سياحة فى الكون والنفس ومعانى الأشياء ... هذه الآية فى رأيى ورؤيتى مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة الاسلامية · ثم تأتى الآية :

[ن والقلم وما يسطرون]

ان الكتابة عطاء نفس وحكمة روح ، وكرامة وموهبة ، والتقاء فن وفكر هو لون من العلاقات الفاضلة ·

آيات الطبيعة بجمالها وألوانها وجرسها اللفظى ··· الآيات التى لا نعلمها فى المدارس ونركز مع الأطفال على آية [القارعة ما القارعة] وقد قصد بها غيرهم ممن ليسوا فى براءتهم أعزائنا الصغار ·

آيات الشورى والحرية وكرامة الانسان الذى احترم عقله وارادته حين هداه النجدين ·

آيات مصر والنيل فى القرآن الكريم وهذه الآيات بالذات أوسمة على صدرى ، مصرية · فلم يرد نهر فى سياق الفخر ، غير النيل ·

ولم يطلق على نهر لفظة الجمع « الانهار » غيره

ولم يطلق على نهر اسم « البحر » غيره

ولم يذكر بلد فى هذا العدد من الآيات كما ذكرت مصر التى وصفها الله بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة وحلم الأنبياء وقبلة الرسالات وبيئتها الحضارية ·

اسلوب القاهرة :

تحدثت عن القاهرة عن اسلوب حياتها اليومية • الآن أتحدث عن اسلوبها اللفظي والحقيقة أنهما يتبعان من أصل واحد هو ايمانها بالدين والقيم والأسرية •

شعور الشعب المصرى بالأسرية تنبع منه ألفاظه كما تنبع منه أخلاقياته وتصرفاته ونظراته فى الحياة والناس ، وينعكس هذا على آدابه وفنونه •

ويتجلى هذا فى أحياء القاهرة الشعبية التى يتميز كل منها بحرفة معينة يبلغ من تجويده لها واخلاصه فيها ، واعتزازه بها ، أن ينتمى اليها فيقال حى النحاسين ، وحى الصاغة ، وحى المغربلين الخ • انه لون من الأسرية يقتصر ويعم وهو فى الحالين طابع أمة •

فى أحياء القاهرة هذه اذا عمل القاهرى سمى أستاذا لصنعته (معلما) والصبى يناديه (يا عمى) • ان العمل قرابة ونسب ••• كل شىء فى مصر ، أسرة • والأب المصرى القديم يقول لابنه الذى يحمل الكتاب (حافظ عليه كأمك) فى ادراك عال نبيل للأم والكتاب معاً •

واللغة الشعبية تسمى الرحم : بيت الولد فى احساس موروث براحة البيت ودفئه وحنانه •

ان الأسرة بمفهومها المصرى العريق ، بؤرة حضارية يتشرب المرء فيها شعورا قويا ومقوما •• رحيما ومنعما •

يستشعر الطمأنينة والسكينة والوفاق ، اذ يشهد تجربة مثمرة أبوين متفاهمين •

وفى مثل هذه الأسرة يولد الشعور بالالتزام نحو المجتمع الأم •

ان قمة التأدب ، قولنا فى المجاملة « مفيش فرق » والذم عندنا القول (أبو وشين) أى لا التزام عنده • عرفت هذا صغيرة ، من نشأتى الباكرة فى رحاب القاهرة الشعبية • ولكن الآن ماذا أرى ؟ لحقت المجتمع القاهرى حمى العصر اللاهث الآلى فتغيرت الصورة الجميلة فمتى تعود القاهرة الأصيلة النبيلة الى تقاليدها الانسانية الوارفة الظل •

السلطان الحقيقى :

تحدثت عن احياء القاهرة وتقاليدها وحرفها وكيف ان الواحد من

هؤلاء ـ اليدويين (معلم) ولمعلميته أصول وتقاليد ، وله احترام خاص وسمت معين ، وحين فتح سليم الأول مصر جمع هؤلاء المهرة والفنانين وحملهم معه الى القسطنطينية • ودلالة هذا بهر الغالب بفن مصر بهرا يسيل لعابه حتى ليعجز عن مقاومته •• ولم يؤثر عن سليم أنه أخذ فنانين وصناعا من مكان الى آخر في الشرق كله •

ويعجب الناس كيف احتمل الشعب المصرى غزاته بعد عصور زهوه الحضارى الذى استمر ألوف السنين • ويذهب المحللون فى تعليل هذا مذاهب شتى • ولكنى مصرية بنت هذا الشعب تجرى فى عروقى دماؤه ، اقول ان استمرار مصر فى صناعة الحضارة كان فيه رضى لنفسها فالخلق والابتداع والتفنن هواها وهوايتها منذ القدم •• أما الحكم فلم يكن يهمها منه الا العدل فيها والتعفف عن اموالها أو عدم الجشع والسطو •• كان الحاكم من هؤلاء الغزاة أو الطغاة مهما بلغ وظيفته ادارية لا فن فيها حتى لتسميها فى سخرية لاتخفى : (الضبط والربط) •

من أجل هذا كله زهد المصريون فى الحكم واعتزوا بالسلطات الحقيقية السلطة الروحية والسلطة الأدبية والفنية •

ان السلطان الحقيقى فى عين مصر هو الفنان الذى لاسلطان لأحد عليه ولو كان من أهل الحرف •

كانت مصر كما تعلمت هذا فى المدرسة وقرأته فى التاريخ بعيدا عن حساب النجاح والدرجات ، تدفع ثمن المماليك من مالها ثم تنظر اليهم وهم يعتلون الكرسى •• دون أن تعير هذا الذى يحدث وأصحابه التفاتا •• حين تلتف حول رجل الدين المعتز بنفسه ، العزيز بايمانه ، وتسميه (سلطان العارفين) •• هذا هو السلطان الحقيقى فى عين مصر •• فعلت هذا مع (ابن الفارض) سلطان العاشقين ، وفعلته مع الحسين أبى على وهو السلطان أبو العلا (سلطان العارفين) صاحب المسجد المعروف فى بولاق •

ان السلطة للمعرفة فى تقدير مصر •

ان الشعب المصرى يعرف انه على مسار تاريخه كله هو الحاكم الحقيقى من خلال علمائه وعطائه •• من خلال سخطه ورضاه على السواء •

الامام الليثى :

تحدثت عن أولياء الله فى القاهـرة · وذكرت منهم ابن الفارض سلطان العاشقين والسلطان « أبو العلا » سلطان العارفين ·· وما دمنا بصدد موقف الرجال فى هذا الشعب ، أذكر رجلنا الليث بن سـعد الذى تعرفه القاهرة باسم الامام الليثى ويتعلق أهلها بزيارته ويقسمون فى ايمانهم (بالامامين) يقصدون الامام الليثى والامام الشافعى ··

الامام الليثى عرض عليه حكم مصر فرفض كما رفض القضاء ولكن السلطان والقاضى كان كل منهما يغشى فى نوائبـه وحوائجه مجلس الليث ، التماسا للرأى أو التأييد فان استحقه جاد عليه به امام مصر وفقيهها ·· واذا أنكر رجلنا الليث من السلطان أو القاضى أمرا كتب الى الخليفة فما يلبث أن يأتى ، الحاكم ، العزل ·

وكم طافت بى جدتى مشـهد الامام الشافعى والامام الحسـين والسيدة زينب والسيدة نفيسة وسائر أهل البيت · وتدعـو لى فى حضرتهم التماسا للبركة وكانت أمنية الأمنيات عندها عندما كنت طفلة أن ترانى أفك الخط فلما تجاوزت الطفولة ودخلت فى مراحل الصـبا كانت أمنيتها أن أقرأ (الجرنال) أى الصحيفة وقد عاشـت حتى رأتنى أكتب فى الصحف وأؤلف الكتب فاذا بها الدنيـا لا تسـع فرحتهـا واذا بها أيضا تعزو هـذا كله الى بركة أهل البيت الذين ربتنى فى رحابهم فى زياراتها السنوية لهم ·

ويستقر هذا كله فى أعماقى ويوجـه قراءاتى دون أن أدرى فى البداية ثم بوعى كامل منى بعد أن شببت عن الطوق فدخـل فى نسيج شخصيتى كل ما هو مصرى الانسان والأثر ·· حتى حبات الرمل فى الصحراء ·· حتى ذرات التراب وأوراق الشجر ·· عاش فى داخـل المكان والزمان والناس والأحداث ·· طلب منى ، جندى ، يوما ، بطاقتى فى طريق الهرم فى أعقاب حرب سـنة ١٩٦٧ ·· كانت عنده تعليمات ينفذها حرفيا بدون تصرف · ونسيت أنه عبد المأمور كما يقول أهلنـا فى القاهرة والريف على السواء ورفضت طلبه ·· كبر على نفسى أن يمتحن حبى للقاهرة ·· قلت له وكيانى يختلج من الألم ·· هل يخفى عليك أن الواقفـة أمامك مصرية ؟ تطلب بطاقتى وهذا التراب كحل لعينى ؟

وتركنى الرجل أسير ·· لماذا تذكرت سنة ١٩٦٧ ·· لا كانت سنة ١٩٦٧ ·· لقـد جرحت الهزيمة حتى البسمات وسنابل القمح ، ورقة

الياسمين .. جرحت السنين فى شيخوخة الآباء ، وجرحت نضارة الطفولة فى الأبناء .. جرحت السرور فى القلب والكبرياء .. جرحت الثقة والقدرة والاباء .. الى حين .. جرحت الليالى .. ليالى القاهرة فلم تعد عذبه ولم تعد فاتنة ساحرة .. وبكى الفجر فى الحقول حتى بلل الصبر .. وتشابهت الأيام فلم يدر بها العمر ..

ومع هذا لم تعرف مصر ولم يعرف تاريخها حالك المبكى .. كانت مصر فى الأعوام الستة تلملم جراحها وتجمع نفسها ، وتستوعب خصائصها فى عملية تحضير للعب الدور الجديد الذى بدأ بالعبور .. قد تشقى مصر ولكن تشفى .

قد تمرض ولكن لاتموت .

كان قريب جدتى عالما متبحرا فى علوم الدين وذكرت كيف كانت جدتى تريد أن تجمع لى الدنيا بعلومها وطيباتها فطلبت الى قريبها طيب الله ثراه أن يفقهنى فى علوم الدين وأن يعلمنى القراءات وأن يستمع الى حفظى للقرآن الكريم .

سمعت من الشيخ حنفى ابراهيم قريبنا العالم الجليل أن الشافعى كان له مريد اسمه .. الربيع بن سليمان . وكان الشافعى كلما ارتج عليه شيء يقول للربيع بن سليمان يا ربيع ادع لى سرجا . يريد « سرج الغول » وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولا يقول أحد شيئا من الشعر الا عرضه عليه ، فيأتى به ، فيذاكره ويناظره ثم يقوم سرج الغول فيقول الشافعى : ياربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم .. كما كان الشافعى يقول عن فقيه مصر قبله ، الليث بن سعد : (الليث أفقه من مالك غير أن أصحابه ضيعوه) (١) .. ومن أخطائنا ننسى فى اندفاعة البهر بالغريب ، أفذاذا بيننا من حقهم الحفاظ والتكريم .

عاش الشافعى فى مصر وآنس اليها واطمأن بها واطمأن لها فحين كيفت مصر آراءه وحورته وبدلت فيها لم يتردد فى كتابة رسالته من جديد نزولا على رأى مصر وعدولا عن رسالته القديمة التى كتبها بالعراق متأثرا فى رسالته الجديدة بالبيئة المصرية وبما خالط وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهه .

ومثل هذا فعله بمذهبه . ففى مصر كتب مذهبه الجديد وما أوسع الفرق وأبعد الفارق بينه وبين مذهبه القديم الذى كتبه بالعراق . وكتابه

---

(١) قد يكون المقصود بلفظة (ضيعوه) أى لم يدونوا تراثه .

« الأم » به شواهد كثيرة على تأثره بالبيئة المصرية كحديثه في القراطيس وشهادة الشعراء وصيغ الوقف ·

لم تنته بعد قصة الامام الشافعي كما وعيتها مما علمتني القاهرة أصبحت كتب الشافعي هي الكتب المصرية وحدها وربما دل على أنها كانت هي المعتمدة منذ النصف الأول للقرن الثالث ، قول أحمد بن حنبل لفتاه اذ قدم الى بغداد من مصر : هل كتبت كتب الشافعي ؟ قال لا ··

قال ابن حنبل : فرطت · فرجع الى مصر فنسخ الكتب ··

ولقد رووا أن ابن حنبل قال (عليك بالكتب التي وضعها بمصر) فانه كما يقول الأستاذ عبد الحليم الجندي (وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ، ثم رجع الى مصر فأحكم تلك) ·

وكان الشافعي نفسه يقول فيما يروي البعض عنه (لا أجعل في حل من روى عني كتابي البغدادي) وفي هذا ما فيه من اعتماده كتابه المصري واعتداده به وحده ·

لقد كان الشافعي تلميذا لمالك · يهاجم في العراق مدرسة الرأى أى مذهب أبي حنيفة فما ان جاء مصر وتأثر بالحياة المصرية حتى مال عن مالك وكون مذهبه الجديد ·

على أن مصر لها قصة مع ابن مالك شبيهة · فقد أبت أن تقبل الروايات كما هي في الموطأ بل كان عبد الله بن وهب يدقق في اختيار الأحاديث وهذا المصري كثيرا ما كان ابن مالك يفتي بآرائه فاذا قال مالك (حدثني من أرضى) فانما هو عبد الله بن وهب ·

وكم لمصر من قصص مع المالكيين · ان الفقيه المالكي عبد الوهاب ابن علي الذي وصفه صاحب تاريخ بغداد أنه لم ير في المالكية أفقه منه ضاقت حاله في بغداد فتطلع الى مصر الملاذ · واذا أكرمه المصريون و « عاش » بقى في مصر فلما حضرته الوفاة سنة ٤٢٢ هـ كان يقول : (لا اله الا الله عندما عشنا متنا) ·

وأزور الامام الحسين وأتطلع الى حديث سيرته وأعرف أطرافا منها بالقراءة والحديث حتى أكاد أتمثله في كربلاء بل أتمثله في طريقه اليها حين سأل قادما منها عن أهلها ومدى مناصرتهم له واستعدادهم للذود منه فقال :

قلوب الناس معك وسيوفهم عليك ٠

ترى لو كان فى مصر هل كان علاه سيف أو لحقه حيف ؟

ســؤال ٠٠

الأزهـــر الشريف :

أفضى بنا الحديث الى حرم الأزهر الشريف وهو علم من معـالم القاهرة الكبرى ٠٠ واذا ذكر الأزهر ، ذكرت الفاظ بعينها تتردد على السمع كلما أزهر اسمه ٠٠ منها (الرواق ٠٠ المجاورين الاجازة) ٠

وقد ذكرت أن بالأزهر ٣٦ رواقا يؤمها المسلمون من مشـــارق الأرض ومغاربها يتدارسون فيها علوم الدين وشعائره ٠ وقد أخذت بهذا جامعات أوروبا فى العصور الوسطى وهو نواة التخصص الذى يسير عليه العصر الحديث ٠

ومن اهم الأروقة بالأزهر : رواق الصعايدة وهو اهم أروقة المالكية . وكان أكابر الأزهر يتخذون مجلسهم بجوار هذا الرواق حيث يتشاورون فى المهمات كما يقول على مبارك فى الخطط التوفيقية ٠٠ وبجوار هذا الرواق ، وحبا فيه وفى أهله من الصعايدة وشيخهم الشيخ العدوى ، بنى عبد الرحمن كتخدا مدفنا له ٠

ومن أروقة الأزهر ، رواق الحرمين مكة والمدينة ورواق الشـام ، رواق الجاويين ، وغيرهم من أهل جزر الهند الشرقية ـ رواق المغاربة لأهل شمال افريقية وهو رواق كبير وهام ٠

والتقسيم الى أروقة يتبع تارة الجنسيات ويتبع تارة أخـــرى التقسيم المذهبى ٠

واعظم دلالة على مكانة القاهرة مدينة الأزهر ، وأزهر القاهرة فى العالم الاسلامى وعلو مقامه فى الشـعوب الاسلامية ، هو (ثبت أسماء الذين يؤمونه من اقطار خارج مصر تمتد من أواسط افريقية الى الروسيا، ومن أقاصى الهند الى مراكش) كما تقول دائرة المعارف الاسلامية ٠

وكلمة (المجاورين) نســـبة الى سكنى طلاب الأزهر بجواره ٠ ويقول على باشا مبارك فى خططه ، ان الأزهر كان به ١٠٧٨٠ مجاورا منهم ٣٦٥١ شافعيا و ٣٨٢٦ مالكيا و ١٢٧٨ حنفيا و ٢٥ حنبليا ٠٠ وقد تضاعفت هذه الاعداد فى القرن العشرين ٠

وكنت أسمع من قريب جدتى أن المدرسين فى الأزهر يسمون انفسهم (خدمة العلم) ٠

وفى الأزهر يحترم الطالب استاذه ويبجله تبجيلا فقد كان للأساتذة العلماء على (المجاورين) أى الطلاب ، سلطان كسلطان الوالد على ولده ٠ فالطلاب يقبلون ايدى شيوخهم بل يحملون نعالهم ويؤدون لهم مختلف الخدمات ٠٠ وهم ينادون شيوخهم بكلمة (أستاذ) أو مولانا ٠

وفى مصر القديمة كان التلميذ ينادى المعلم : « سيدى » ٠

عند الأزهر الشريف أقول : ما من مصرى بعامة أو قاهرى بخاصة أو مسلم فى سائر العالم الاسلامى الا وللأزهر فى نفسه مكان مميز ما هو لجامعة مدنية أو دينية غيره ذلك ان الأزهر من العالم الاسلامى واسطه العقد فهو يؤمه وضعا ويتوسطه موضعا يقوم على أرض الحضارات والعلوم والفنون منذ القدم مما يمده بالبقاء والاصالة والاقتدار ٠٠ وهو لايبعد عن الحجاز مهبط الوحى ومهد الرسالة وموطن الرسول ٠

وهو فى الشمال من افريقيا

وفى الغرب من آسسيا

وفى الجنوب من أوروبا

وكلها تسعى اليه وتلتقى عنده بما لايحدث على هذا الوجه الأعم فى غيره وان تعددت جامعات فى العالم الاسلامى ٠

ولعل نظام الأروقة الذى يسود به خير شاهد على هذا ٠ انه جامع وجامعة رسالة وثقافة ٠٠ وأحس بهذا الحكام والمحكومون على السواء فكان الأولون يضيفون اليه فى البناء ، والآخرون يركنون اليه فى الشدائد ٠٠ حتى حين حاول الأيوبيون الغض منه أو الاعراض بالعناية عنه ، مالبث أن ذاع صيته من جديد بعد انقضاء عهدهم ٠

راحوا وبقى الأزهر كعبة للعلم ، ومحرابا للدين ، وحارسا للحضارة ، حين داهمت الحضارة غزوات المغول فى الشرق ، وانقضاض الغرب فى أسبانيا ٠

وحين تهدد مجد الاسلام هنا ، وتبدد حكم الاسلام هناك ، لاذ الدين ومن ورائه اللغة العربية ، بالأزهر فى مصر حيث كانت من خلاله تشع العلم وتجرى الرزق ٠

قام الأزهر مقام مدارس بغداد في المشرق ، ومدارس قرطبه في المغرب ثم انفرد بامانة العلم في بلاد الاسلام ٠

انه أول عمل معمارى فاطمى صاحب مولد القاهـرة المعزية وبقى معها حتى اليوم ٠

وتختلف الروايات والتفسيرات في اسمه كاسم القاهرة ٠ هل هو نسبه الى فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام التى انتسبت اليها دولة الفاطميين قاطبة ؟ ويعزز هذا الرأى المقصورة التى أقيمت فى هذا الجامع وسميت باسمها ٠٠ أم أزهر نســبه الى القصور الزاهرة التى احاطت به عندما بنيت القاهرة ؟

أم الأزهر تيمنا بما سيصير اليه وما ينتظر العلم والدين على يديه من ازهار وازدهار ومكانة ؟ أم الأزهر ، ردا على مدينة الأمويين بالأندلس . الزهراء ٠٠ التى سبقت مولده بأربعة وثلاثين عاما (٣٢٥ هـ) تلك المدينة التى أشار اليها ، وأشاد بها شاعر الأندلس ابن زيدون فى رسـالته الى ولادة ٠

انى ذكرتك بالزهراء مشـتاقا والأفق طلق ووجه الماء قد راقا
وللنسيم اعتـلال فى أصائله كأنما رق لى فاعتل اشفاقا

تفترق التفسيرات أو تلتقى فان جامعنا الاكبر بها أو بدونهـا ٠٠ أزهر ٠٠ ومنارة للعلم والدين منذ جلجلت فوق سامقات مآذنه : كلمة الله أكبر ٠

انه الأزهر ذو التقاليد العريقة الراسخة ٠٠ انه الأزهـر الذى كانت (أجازته) شهادة لها قيمتها ٠٠ شـهادة حقيقية صعبة المنـال فلم تكن تمنح الا للقادر على الفهم والاضطلاع بمسئولية التدريس ٠

كان أستاذ الأزهر يرتفع بنفسه ويرتفع بعلمه على التبعية لايسعى بل يسعى اليه ٠ يقول على باشا مبـــارك ان الشـــيخ البيجورى كان (عباس باشـا فى جلوسه على تخت مصر يزوره فى درسـه بالأزهـر فلا يقوم له بل يوضع كرسى من جريد يجلس عليـه خارج الدرس هنيهه ثم يخرج) ٠

ونستطيع أن نقارن هذه الصورة بنقيضها لنعرف الفرق الجسيم ٠

من اعتداد الشيخ العالم بكرامة العلم وحرمة الأزهر ، اعتد بنفسه واحترم رسالته الدينية والعلمية ٠ ولو تصاغر لصغر فى عين عباس ٠ وويل للأمة التى تسقط فيها هيبة العلم والعلماء فيسود الجهل والجهلاء ٠

كان أستاذه الأزهر رجالا وكانوا قيمة وكانوا قمة ٠

من رجال الأزهر رفاعة الطهطاوى وسعد زغلول وعلى مبارك والشيخ محمد عبده والشيخ المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ شلتوت والشيخ عبد الحليم محمود ٠

ان النهضة الحديثة تدين للأزهر بروادها كتابا وأدباء ومفكرين وعلماء حتى أولئك الذين انسلخوا منه فى فوعة الشباب ، وثورة الطموح أمثال الدكتور طه حسين وصاحب الرسالة الأستاذ أحمد حسين الزيات والأستاذ الزناتى ، لم ينسوا الأزهر فى حياتهم أو فى كتاباتهم أيامهم به وآمالهم فيه ٠

حين ترجم الأستاذ الدكتور أحمد أمين لحياته وقف وقفة طويلة عند الأزهر ٠

بل ان الذين تخرجوا من القضاء الشرعى انما يمتدون بجذورهم العلمية الى الأزهر فقد كانت تجهيزية الأزهر ، وسيلتهم الى مدرسة القضاء وأحد هؤلاء الاعلام الأستاذ أمين الخولى ٠

وفى الأزهر تحلقت حول جمال الدين الأفغانى ، الندوة ٠٠ والى الأزهر اشرأب الملوك والسلاطين والأباطرة يجسون نبض شعوبهم على وقع كلمات الاصلاح تنادى بها السلطة الحقيقية وهى السلطة الروحية ممثلة فى علماء الأزهر ورجال الفكر والعلم حتى لقد طلب الشاه وساطة سلطان تركيا عند جمال الدين الأفغانى أن يوقف الحملة عليه فقال العالم فى عزة المؤمنين الذين قرنهم الله برسوله فى الآية : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » قال الأفغانى رادا على رسالة سلطان تركيا : (قد عفوت عن شاه العجم) ٠

وكم للأزهر ورجاله من مواقف فى حياة العالم الاسلامى ٠٠ وكم للأزهر ورجاله من منازل فى قلوب المسلمين ٠

الأزهر ليس فقط معلم القاهرة بل انه معلم م نمعالم العالم الاسلامى ٠٠ انه ألف سنة من تاريخنا الألفى ٠٠ ليس جامعا فحسب وليس جامعة فحسب وليس جامعا وجامعة فقط ٠ لقد استحق هذه الوقفة منا بماله من مآثر ومواقف وبصمات ٠ لقد اشترك الأزهر فى صنع الأحداث بمصر والمنطقة العربية بل والعالم الاسلامى ففى رحبانه قام الخطباء والزعماء المصلحون وأهل الفكر من أنحاء العالم الاسلامى بالدعوة الى اصلاح الدين والدنيا بما يعنيه الاسلام من شعائر وشرائع ٠

وممن تصدروا بالأزهر من أعلام الفكر الاسلامي عبد اللطيف البغدادى وابن خلدون •

وبالأزهر اتصلت حياة الأحرار وأصحاب الدعوات كالكواكبي حين جاء من سوريا ، بل من الأزهر سافر الشيخ محمد عبده الى الشام فالتف حوله السوريون سنة ١٨٨٥ م (يتلقون منه دروس العلم والحكمة والخير) • كما ترك الشيخ محمد عبده في بيروت أثرا عظيما •• بل ان بعض الدعوات الاجتماعية في بعض بلاد الشرق ، نهض بها أبناؤها ممن تلقوا العلم في الأزهر وليس الى الشك من سبيل أن جزءا كبيرا من تاريخ باكستان المعاصر قد كتب في رحاب الأزهر •• وفي رحابه كتبت فصول من قصة تحرير أندونيسيا •

بل كذلك تونس وليبيا والمغرب والجزائر وكثير من بلاد افريقيا وآسيا •

ان الأزهر حلم الملايين في القارتين

وفي الأزهر قامت الدعوة الى الاصلاح الدينى على يد الشيخ محمد عبده والشيخ المراغي •

كما يمثل الأزهر « الساهر » على الثقافة الاسلامية •

ان أضبط مصحف كتابة ورسما وشكلا من عمل الأزهر

والمصحف المرتل

والمصحف المجود

انه عطاء للأزهر ولمدينة القاهرة •

والذى يسجل للقاهرة ويقف بالأزهر و (عليه) لايفوته أن الأزهر الذى كان يدرس لطلابه العلوم الدينية ، علوم الأدب والتاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية والرياضية أصبح الآن يحمل تبعاته في نهضة الأمة الاسلامية كجامعة كبرى لعلوم الدين والدنيا •• من كليات أصول الدين والشريعة واللغة •• الى كليات الحقوق والطب والهندسة والعلوم وغيرها •

ان الأزهر ومن ورائه مدينة البعوث الاسلامية ينهض برسالة ضخمة اليوم كالأمس • رسالة دينية واجتماعية وسياسية •

رويت أطيافا من قصتي مع القاهرة مثوى الحسين والامامين والهاشمية الكريمة السيدة زينب .. مفاخر القاهرة .. وتعمل القاهرة كل يوم على تعميق الدين في وجداني .. أقول كل يوم فالآذان في القاهرة يسعد الاحساس فان جميع مؤذني المساجد في القاهرة كانوا كما يروى الشيخ البشرى في كتابه « قطوف » (اذا ظهروا المآذن للهتاف بالأولى أو « الأوله » .. ومن أولة الآذان هذه ، ابتسدع بيرم ، فيما أرجح ، حسين تشرب الروح المصرية ، الوان الأوله في الغنساء ، اذا أن الآذان وقف المؤذنون وقد أرهفوا آذانهم ، وعلقوا أنفاسهم في انتظار الأمر الذى يصدر اليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج لليلتهم . فاذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنغمة الرصد مثلا ، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالهتاف بها ، وأخذ أخذهم مجاورهم ومن تفتح لسماع أصواتهم ، وهكذا فلا تمضى دقائق الا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة الرصد ، واذا بدأ بالبياتى أو بالحجاز أو بالسيكاه .. الخ فهكذا .

وهذا دليل على القصد الى ضبط المؤذنين لأصواتهم ، وتحكمهم فيها بذاتهم وعدم تأثرهم بالأنغام الأخرى ، والا اضطروا الى الخطأ ، ودفعوا الى النشاز .. وهو دليل في الوقت نفسه على أن أهل مصر أو أبناء القاهرة على الأقل ، كانوا أصحاب فن ، وأهل ذوق ، وعشاق تطريب .

على أن الشيخ البشرى لايخفى دهشته من أين جاء مصر هذا التقليد ولا حتى أين كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد ولعل ذلك يرجع أن « البياتى » هو نغمة البلد الأصلية ، أو هو من أصل النغم التى تتقلب فيها حناجر المصريين .. ففى الحق أن هذه النغمة ، فوق سعة أفقها ، وتقبلها لكثرة التصرف والتكوين ، فان المصرى يجد من الاستراحة اليها ، والانس بها ، ما لا يجد لكثير . أو لعله يرجع الى هدوء في طبيعتها ، يلين للحناجر قبل أن تصقل وتجلى ، ثم يتلطف لها بعد ماانهكها الجهد الشديد .

لقد موسقت مصر الدين بطبعها الغنان . وقبل الاسلام كانت موسيقى مصر الكنسية (أقدم مدرسة موسيقية معروفة فى العالم) .

بل تكاد تكون أغناها أيضا بما انبثقت عنه من موسيقى مصر القديمة موسيقى المعبد التى تحمل أسماءها الى اليوم ألحانا كاللحن السنجارى نسبة الى بلدة سنجار التى تقع شمال محافظة الغربية وكذلك اللحن

الاتريبى نسبة الى آتريب القديمة بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة اخميم .

ومن موسيقية مصر انها اتخذت دورا ذائعا فى علم القراءات فمن ورش المصرى أخذ المغرب عن تلميذه الأزرق بن عمرو بن يسار المصرى واخذ الأندلس عن عبد الصمد المصرى أيضا . كم تفجر القاهرة بما هى عاصمة مصر وعاصمة العواصم .

رويت أطرافا من قصتى مع الأزهر .. ولكن الأزهر ومن ورائه دولة الفاطميين له مع مصر قصته . ودولة الفاطميين كما تعرفون شيعية .. ولكن مصر لم تتشيع بل تهكمت من الفاطميين حتى فى أوج حكمهم ، ومن تعاليهم حتى اضطروا كما يقول الدكتور كامل حسين الى (أن يغيروا عقائدهم حتى تتلاءم مع طبيعة المصريين) بعد أن باءت كل محاولاتهم لحمل مصر على اعتناقها بالفشل .

ابتدعوا الأعياد ومناسبات السرور والترفيه وألوانا من الطعام والشراب ولكن مصر لم يستهوها شىء وان كانت جاملت أو سايرت فى الأمور البسيطة ولو من باب التغيير أو التفويت أو الثقة بالنفس فهى الباقية بعد كل السطحيات . لقد مكثت الدولة الفاطمية نحو مائتى سنة ومن ورائها ذهب المعز وسيفه ولكنها انتهت وبقيت مصر التى جمعت رفاتهم ودفنتهم فى الدراسة ثم عادت تمارس النقش والتفويف والنمنمة والتكفيت والترصيع وصياغة الذهب والفضة فى خان الخليلى لأن الفن هواها وهوايتها منذ القدم .

لقد زين ثلاثة من الدعاة للحاكم أن يدعى الألوهية استغفر الله وراحوا يدعون له بين المصريين بعد أن نجحت هذه الدعوة فى الشام ومن بقاياها طائفة الدروز بجبل لبنان وهم أتباع وأشياع الحاكم ولكن مصر ثارت على دعاة الحاكم وقتل المصريون واحدا منهم وفر الآخران من مصر .

واستدعى الحاكم ، رجله الكرمانى (الذى يعرف فى الدعوة الاسماعيلية بحجة العراقيل) ، لتهدئة الخواطر . ولكن الكرمانى شايع مصر لا الحاكم وكتب رسالة فى الرد على أحد دعاة تاليه الحاكم وأنكر فى رسالته هذه ، ألوهية الحاكم وكفر القائلين بها .

وهنا ثاب الحاكم الى رشده بعد أن لقنته مصر درسا . فعدل عن ادعائه . وقديما أعادت مصر الرشاد الى جده العزيز بالله بعد أن تهكمت عليه كدأبها يوم ادعى علم الغيب فكتبت له ورقة أودعتها المنبر يقول فيها المصريون :

بالظلم والجور قد رضينا   وليس بالكفر والحماقة
ان كنت أعطيت علم غيب   فقل لنا كاتب البطاقة

وأقلع العزيز عن بدعته بل اعتذر أخوه العباسي وكان شاعرا ، بلسانه في قصيدة طويلة . انها مصر .

رأينا موقفا من مواقف القاهرة مع الفاطميين .. موقفا من العقيدة يتفق مع طبيعة الاسلام البسيطة السمحة ، ومع طبيعة مصر الصافية السهلة بلا كلفة أو تعقيد .. رفضت مصر أن تسلم بالآراء والاهواء التى عرفت في بعض البلاد الاسلامية من التشيع أو سواه . لم تمل لهم مصر ولم تتجاوب معهم بل لاذت بالمعنى الجامع والكلمة الشاملة .

واذ آنس حكامها منهـا هذا الميل ، نزلوا على رأيها أو نزلوا عن رأيهم .

وعرف الاسلام مصر ذات العقيدة الخالصة ففي القرن السابع الهجرى عندما كثرت فيه الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها .. واذ حزب الأمر تطلع الاسلام والمسلمون ا لىمصر لتحسم الموقف كدأبها فى الأزمات الكبرى فاتفق رأى العلماء على رجلنا الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللمح المصرى ، والوجدان المصرى مذهبا يرتضيه النـاس ويرتاحون اليه ، ويقرون عنده (١) .

ويتكرر الموقف مرة أخرى فى عصر الشيخ الشعرانى وهو بلدى السبكى . وقد حاول الشيخ الشعرانى ، مرة أخرى التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولة التوفيق بل اهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال ويقول الباحثون الغربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا .

ان أبرز ما تجلت شخصية مصر فى العصر الفاطمى الذى تم فيه تعريبها .. ففى عصر الفاطميين الذى يعتبره المؤرخون نقطة تحول فى تاريخ مصر من الناحية الدينية .. فى العصر الفاطمى هذا وقفت مصر كما رأينا وقفتها فى الدين ، وفرضت أسلوبها على الفن فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التى ألفها أجدادنا فى منبر مسجد قوص وفى محراب السيدة رقية .. وفى ألواح القصر الفاطمى الصغير فى المتحف الاسلامى.

---

(١) كتاب (شخصية مصر) للمؤلفة .

ومع الحفر الغائر والبارز ، التلوين والتطعيم والتخريم والترصيع بالمينا .. حتى الفخراني المصري البسيط تفنن في تشكيل القلل وزخرفة شبابيكها زخرفة تظفر باعجاب الرائي .

والفن الاسلامي في مصر حين يطعم ويرصع ، انما يستجمع خبرات المكان الذى انطق الحجر ، ولعب بالذهب ، ومهر في التشكيل والتصوير؟ وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صيغت من ضياء الجواهر النادرة أتكلم عن حرف القاهرة ، تصعد جبل المقطم ليمنحنا اطلالة جامعة على القاهرة .

كانت الوقفات السابقة عن عقل القاهرة وتفكير القاهرة فما كان لنا أن نقف بالأزهر دون أن يفضى الحديث عن دور القاهرة الاسلامية في الدين والفن .. أقصد لمحات من هذا الدور فان استيعابه كاملا يملأ مجلدات .

ولما كان الأزهر يتوسط القاهرة الاسلامية باحيائها الشعبية وما تحفل به من حرف وصناعات تروق وتشوق فانى آثرت قبل أن أتكلم عن حرف القاهرة ، أن نصعد جبل المقطم ليمنحنا اطلالة جامعة على القاهرة .

وأهل القاهرة منازههم النيل والمقطم .. أما النيل فأنتزع نفسى انتزاعا من الحديث عنه الآن حتى لا يستوعبنى دون أن أستوفيه .. اتحدث الآن عن المقطم لقربه من الأزهر .

ان الجالس في أعلى المقطم يرى منظرا عجبا .. هنا تطل عينى وقلبى على القاهرة . المنازل تبدو لعينى أشبه بتلك التى يعرضها والت ديزنى على الشاشة .

كل شيء يصغره البعد المادى منه والمعنوى ، ويكبره القرب ويكبره الحب ، الا الله فهو وحده الذى يظل في الحالين كبيرا كبيرا في العين والقلب والضمير .. قربه رحمة ورضاء .. وبعده قوة وامتناع .. ليس كمثله شيء وليس له كفوا أحد .

أعلى المقطم القاهرة تبدو وكأنها تزحف ببيوتها وعمرانها الى سفح الجبل . لقد علته واستراحت هذه الدءوب الطموح وسحبت في ركابها أعمدة النور وأسلاك البرق .

عينى ترى منازل للحياة ومنازل للموت كان يظن في وقت من الأوقات انها نهاية الأحياء ونهاية حدود مدينة القاهرة فاذا بالحياة تمتد بعدها الى مدينة المقطم حتى لتحصرها بينها وبين القاهرة القديمة .. دائما الحياة أقوى من الموت .

عينى تتزاحم عليها أشياء كثيرة يقابل بعضها ، بعضا ٠

من على المقطم يصفو وجه القاهرة لرائيه ومتمليه ٠٠ الشمس تسكب على مدينتنا الحبيبة دافقا من النور أبيض وهاجا ٠٠ وضحكت لى من بعيد القاهرة ٠٠ الجميلة الآسرة ٠٠ العظيمة الآهلة ٠٠ أسفرت على يمينى المنازل الكبيرة والعمارات الشاهقة والمآذن السامقة والقباب ٠٠ وأرى من المقطم القلعة بشموخها ورسوخها ٠٠ ما أحفل تاريخ الانسان بالعبرة ٠ هذه القلعة بقبابها المتدرجة فى الارتفاع تمثل تاريخا فى العيش والتفكير ٠٠ كان الانسان حين بناها ٠٠ يحتمى بالحصون والقلاع يشيدها على ارتفاع ، وينشد عندها الملاذ والامتناع ويرمز بها الى القوة والضمان فاذا به اليوم بعد غزو الفضاء وسيادة الطيران يرجع الى الأرض وما أكثر ما يرجع اليها — يودعها ذخائره وينحت خنادقه فى هذه الخالدة الباقية ٠٠ هذه الارض الطيبة منها خلق ، وفى رحابها نشأ ، وفى مناكبها مشى ، وبها شب ، وعليها درج ومنها خرج ، واليها يعود ٠

جبل المقطم :

وفى اطلالة على القاهرة من الجبل رأيت كثيرا ٠٠ وبعض هذا حى الراحلين ٠٠ وكانت جدتى فى المواسم كسائر المصريين تتذكر الأعزاء الغائبين وتترحم عليهم ٠٠ أما أنا فكنت أرى فى القرافة أشياء أخرى ٠٠ لاحظت صغيرة أن الزحام يعرف حتى القرافة فهى لا تظفر بالهدوء أو الصمت ان الزحام فيها ، ألوان ٠٠ فى الأشخاص والأصوات والحركات والمعانى والعبر ولعل أشد هؤلاء اثارة للانتباه ، الفقهاء ٠

هؤلاء الفقهاء معلم بارز من معالم (القرافة) فهم فى (المواسم) يجوسون خلال المقابر فى البكرة الندية يمشى الواحد منهم يتدلى ذراعه الى جانبه ويتدلى من الذراع جبة انطبق بعضها على بعض ٠ أما عيناه فهما تدران فى كل اتجاه كالصائد الذى يتشمم ريح فريسته حتى اذا لمح على البعد شبحا جلله السواد حث الخطى نحوه وتنحنح وسعل فاذا دنا منه ألقى تحية الصباح ٠٠ وقبل أن يجيئه الرد يعرض خدماته ثم يردد عبارات محفوظة فى حكمة الحياة والموت والزوال والبقاء يستنزل بعدها للمرحوم الرحمة ، ثم يعود الى موضوعه الأصلى فيقترح على السيدة المحزونة أن يقرأ سورة فاذا هبطت عليه بعد طول الحاح الموافقة ، قعد القرفصاء وأخذ يتلو متمهلا مجودا ، وعيناه ٠٠ عيناه لا تستريحان من مهمتهما بل تظل كما كانتا تدوران فى كل اتجاه ، حتى اذا لمحت على البعد مرة أخرى ، شبحا اسود — أسرع فى القراءة متخطيا آيات مزدردا

اخرى ، وكان مسا من كهرباء سرى في لسانه وجسمه كله ، فهو يطوى السورة طيا حتى يصل الى آية مبشرة تصلح للوقوف عندها ثم يهب واقفا وقد مد يده في انتظار الأجر ومد رجلا على استعداد للعدو واللحاق بالصيد الثاني .. وهكذا .. وهكذا يظل واحدهم يومه كله في مطاردة واقتناص .. وأكثر السور دورانا على ألسنتهم ـ (الكهف) و (الرحمن) لست أدرى هل لسهولة يحسونها نحوهما من طول ترديدهما أم بناء على طلب الزبائن فان لهاتين السورتين جاذبية خاصة عند السيدات والكبيرات خاصة وفي سورة (الرحمن) موسيقية عذبة لأنها تجرى في الأسلوب على نظام الفواصل مع القصر والتتابع والألف في الآية التي تتخلل السورة كثيرا « فبأى آلاء ربكما تكذبان » حرف المد هذا مريح ، ثم الصور الجميلة في السورة .. النعيم الموعود ، فيه من كل فاكهة زوجان .. ونخل ورمان وحور عين كأمثال اللؤلؤ والمرجان تستهوى من علت بهن السن أو لعلها تغريهن في مغرب العمر عن الدنيا الذاهبة هذا اذا كان هناك سيدة تعترف بالسن . والحقيقة أنني كلما سمعت هذه السورة تملأ على صورة جدتي خيالي ونفسي بل تملأ على المكان كله فقد كانت تصغو الى المقرىء وهو يقرؤها في استغراق وحنان وتتمتم ، وأذني تسمعها كلما ورد ذكر الجنة « لم يتمتعوا في الدنيا يتمتعوا في الجنة ونعيمها » وتنشج روحي من أجلها ومن أجل أعزائها أعزائي ـ حتى اذا انتهت السورة أحسست أمي الكبيرة براحة كبيرة تسرى بدورها الى ، وكأن السورة سكبت عليها برد الرضا وشآبيب الرضوان .

ولكن أشد ما يضايقني من مقرئي القرافة ، ازدرادهم كلمات الكتاب الكريم وخاصة في هذه الآية التي أعدها لوحة رائعة لا أمل النظر اليها والتعمق فيها « وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ، ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .. تحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » .

هذه الطاقة الهائلة من المعاني والصور التي شحنت بها الألفاظ .. أي كهف هذا وأي ناس أولئك الذين راحوا في سبات عميق .. لا يحسون نأمة ولا يسمع لهم ركزا ليسوا من الدنيا اليقظى حولهم ولا الدنيا منهم حتى الشمس تزاور عن كهفهم في المشرق والمغيب . أنا عاجزة عجزا تاما عن تصوير ما بنفسي من الاحساس نحو هذه الكلمة « تزاور » بما فيها من عزوف مقصود أو غير مقصود .. بما فيها من تجاهل .. بما



منظر للقلعة والقرافة الشرقية (قرافة المماليك)

فيها من اعراض ، ان الشمس التى تزور الدور كالقصور بدون تمييز أو محاباة تزاور عن كهفهم ..

هذه الآية المشحونة بطاقات التعبير وقدرات الكلمة الغنية بالرمز والاشارة تضيع فى تطوحات رأس فقى القرافة ورقبته المترنحة .. تضيع على لسانه الذى يدور .. كالطاحون ينهب الحروف نهبا فيطوى السورة فى دقائق تسىء الى المعانى والصور وأرقى وأجل فنون البلاغة . أنا أعرف كلمة فقيه بمعناها المقصود من التسمية كلمة جليـــلة عالمة ولكنها حين خرجت عن مدلولها الأصلى لنطلق على هؤلاء تصل لونها حتى لتذكرنى بالمثل الشعبى (من خرج من داره اتقل مقداره) وكثيرا ما تصدق الأمثلة على الأشياء كما تصدق على الأشخاص .

ليتنا نقرأ الفاتحة بأنفسنا فى احتشاد وفهم واحساس . فنحفظ للأعزاء الراحلين جــلال الذكرى ونحفظ للكتاب الكريم هيبتــه ومكانه وكلها بلا حدود .

فى الصفحات السابقة زرنا حى الراحلين ورسمت صورة لقرتيه ولكنى بعد أن تعلمت وقرأت وطفت بكل شبر فى القاهرة بل فى مصر كلها سياحة فى المكان والزمان أصبح لحى الراحلين صــــورة مقابلة فى ذهنى .. لقد أحببت مصر الحياة .. بل ا نحضارتها حلم بالخلود ورغبة حميمة فى البقاء وتعلق به .

كان أسلافنا من حبهم للحياة لا ينطقون اسم الموت بحروفه بل يكنون عنه فيقولون عن الميت (عبر الى الضفة الأخرى) أو (ربط حبال السفينة فى المرساة) أو (سافر حيا) .

وكما نعتقد بعد الاسلام أن الانسان الصالح جزاؤه عند ربه جنة النعيم ، كان قدماء المصريين يعتقدون أن الحياة الأخرى انما تكون فى السماء ، والعالم الآخر عندهم ليس العالم السفلى بل العالم السماوى (الموت هو الصعود الى السماء على شعاع من نور فكانوا يقولون (ولقد ضرب لنفسه شعاع « رع » ليصعد فيه) .

والمصرى القديم كان يرى فى بهاء سماء مصر الصافية ليلا ، أرواح أعزائه السابقين تتلألأ وتطل عليه فى شكل نجوم .. فنجوم السماء فى عين المصرى أرواح الأحبة .

كان المصرى لا يتصور أحبابه الراحلين موتى فى بطن الأرض بل أرواحا مجنحة تحلق كالطيور وترتفع فى السماء وترتفع على الأعداء فاذا

أقبل الليل ، تملاها فى الجهة الشمالية من السماء نجوما أبدية أو كما يسميها (غير الفانية) •

وتصوره هذا يفسر بأنه يقصـــد النجوم القطبيـــه التى لا تغرب ولا تغيب •

شفاف هفاف خيال مصر كروحها •

التابوت المصرى ، فى المتحف ، غطاؤه فيه نوت الهة السماء تنشر ذراعيها كجناحين أى دعاء بالرحمة والصمود فى انطلاقة من الاسار الى الرحبات العليا •

الراحل المصرى تظلله السماء وترعاه

الحنان لا يفارق المصرى حيا وميتا •

والموت فى الرؤية الدينية ، رقى ، بالانتقال من حياة الجسد الى الروح وقد تكشف القلب المصرى هذه الرؤية قبل الأديان فاستعلى على الموت بالخلود أعمالا باقية وذكرا عاليا ، وتاريخا مسطورا •

وما الخـــلد مرتبـــة تلقى — وتؤخذ من شفاه الجاهلينـا
ولـــكن منتهى هم كبـــار — اذا فنيت مصـــادرها بقينا
وأخـــذت من فم الدنيا ثنـــاء — وتركك فى مسامعهـا طنينا

حديقة الأزبكية

تكلمت عن حب مصر للحياة والفرحة بها • وأظهر ما يتجلى هذا فى الفن •• حتى حين تكون مصر جريحـــة مثخنة بالجراح والديون •• لم ينقطع عطاؤها للفن •• والقاهرة فى طفولتى وصباى ولم تكن مصر قد استقلت بعد ، كانت تشرق بحديقة الأزبكية وأكشاك الموسيقى والفرق الموسيقية والمسرحية العالمية وكان شارع عماد الدين حاشدا بالمسارح حتى كان يسمى شارع الفن •

عند حديقة الأزبكية التى تحولت الآن الى بوليس نجده ولم ينجدها أحد حين ذبحت أشجارها وطمس جمالها •• كانت حديقة الأزبكية كما تحكى جدتى فى وسطها الفسقيات تتناثر حولها المصابيح وبها الجبلاية على أبدع طراز وتخوت الطرب وكانت الكراسى تؤجر بثمن زهيد لعشاقه فلما شبت ثورة ١٩١٩ كانت حديقة الأزبكية مسرحا للمقاومة السياسية منها والاجتماعية ويقول استاذنا الدكتور حسين فوزى أن البوليس لم يكن يتدخل فى هذه الاجتماعات الا بقدر المحافظة على النظام فيها وحولها •

كانت حديقة وكانت تاريخا •• وقد مسخنا الحديقـــة ولم نحفظ

التاريخ • رأينا الأوبرا تحترق وفي قبالتها المطافي الرئيســــية لمدينة القاهرة فلا تعلل بالتليفون أو المواصلات بل الأوبرا التي كانت تكمل وتتمم بهاء حديقة الأزبكية والقاهرة معا •

الأوبرا التي أنشئت سنة ١٨٦٩ معلنة سبق مصر في الأخذ بجوهر الحضارة الحديثة وانشيء معها في سنة ١٨٦٩ مسرح مصرى تعرض على خشبته تمثيليات مصرية •

وكان ذلك حدثا جديدا • فالى ذلك الحين لم يكن أحد قد كتب أو مثل على مسرح وطنى أمام النظارة كما يقول الناقد الفرنسي (جان لويس بارو).

وكان انشـــاء مسرح عربى في ذلك الوقت ، يعـــد مجازفة كبرى لاعتبارات كثيرة •

وهكذا بدأت الحياة المسرحية في مصر •• بدأت فيها ، وبها ، قبل أن يفد عليها سليم نقاش وزملاؤه لائذين بها أمام ضغط السياسة في بلدهم •

وحين أطلق الشام الصبيان في الشوارع ينادون على المسرحي أحمد أبي خليل القباني :

أبو خليـــــل مين قالك على الكوميديا مين دلـك

ارجع لكارك أحســـن لك ارجع لكـارك قبـاني

حين حدث هذا في الشام تحمس المصريون للمسرح وأقبلوا عليه بل تزاحموا على مشاهدته • بل شاركوا فيه بطريقتهم الخاصة وهي التعليق على الأحداث وتوجيه الأبطال في عملية تاليف فورية •

لقد اشترك في كتابة المسرحية في مولد المسرح المصرى أى في القرن التاسع عشر الزعيم المصرى مصطفى كامل فكتب مسرحيته (فتح الأندلس) سنة ١٨٩٣ •

هل يعزا هذا الى طبيعة الشعب المصرى أم الى المناخ الثقافي في مصر ؟ أم الى سبقها في الاتصال بالغرب منذ الحملة الفرنسية وما أعقب الصحوة من ارسال البعثات الى أوربا والوقوف على أسرار التقدم بوعى متفتح بين الفروق حتى ان الشيخ رفاعة الطهطاوى ابن الأزهر وابن الصعيد فرق في هدوء وواقعية بين الرقص الشرقي والرقص في الغرب •• فرق بين العفة وبين الاختلاط ولم ير في مشاركة المرأة ، الرجل ، خطرا عليها طالما كانت محصنة تحصينا صحيحا بالتربية الحقة والتعليم الجوهرى •

وتحكي جدتي عن المسرح وكانت تنطقه المرصح بتقديم الراء وقلب السين ، صادا • وتفيض عن الشيخ سلامة حجازى و « السلام'ت » التى كان يغنيها والجوقات •• وعن ليالى أرض شريف الذى كان ينفق على المسرح من ماله • كان أغنياء عصرها ، أصلاء وأهل نعمة وأصحاب دور فى الفنون والوطنية لأنهم أصلا من بيوت نعمة •

وتحكى جدتي عن الشيخ سلامة حجازى وكيف نشا نشاة متواضعة فعمل صبى حلاق وشارك مع المقرئين والمنشدين فى الأذكار وتعلم أثنـاء ذلك العزف على (السلمية) ولحلاوة صوته وهو فتى ، جعلوه يؤذن الفجر فى مسجد بالاسكندرية فكان صوته يجذب النهار •• والناس •• الناس •• كانوا ينظرون مذهولين كأن الآذان انهل عليهم من السماء ، عليه نفحة من روح بلال مؤذن الرسول •

تقول روز اليوسف فى مذكراتها عن تلك الفترة ، ان روايات المسرح فى ذلك الوقت (لابد أن يكون بطلها مطربا ، ولابد أن يغنى المطرب فيها بضع قصائد لا علاقة لها أبدا بموضـــوع الرواية •• بل لمجرد اجتذاب الناس الذين كانوا لا يشهدون الا اذا كان فيه « مغنى ») •

الم أقل ان أهل القاهرة أصحاب ذوق وأهل فن وعشاق تطريب ؟

ومن حديث روز اليوسف نفهم سر زج الشيخ سلامة حجازى بالأغانى فى مسرحياته حتى الدرامية العنيفة مثل عملت وعطيل بل كان يزج فيها بمنولوجات الوعظ والارشاد مثل منولوج (فتى العصر) و (فتاة العصر) .

وكان يختتم مسرحياته بفصل مضحك ولا موضوع له ولا هدف منه الا (الاضحاك) لا غير ترويحا وترويجا •

ويبدو أن تقليد (الفصل المضحك) انتقل من الشيخ سلامة حجازى مع رواياته الى فرقة عكاشة •

ومن طرائف التمثيل فى ذلك العهد أن المسرحية كما تحكى جدتى كانت أحيانا تختتم باستفتاء غنائى عن الرواية المعروضة • فقد ختمت مسرحية (البدر لاح) وكان مؤلفها عبد الحميد كامل بهذا الاستفتاء :

مش بشرفكم وبذمتـبكم الرواية دى جت على كيفـكم

قولوا الحق يا أيوه يا لا ماحـدش راح يزعل منـكم

وهو استفتاء خفيف الظل وان كان يبدو أنه صاحب نظرية نعم •• أو لا اياها •

وتحتفظ ذاكرة جدتي بأسماء كثيرة في عالم المسرح في زمانها ٠ وعندما قرأت لنفسي عن المسرح لمست صدق ذاكرتها تلك المصرية التي كانت لا تقرأ ولا تكتب ٠٠

حين قرأت لنفسي تبينت أن بداية القرن العشرين كانت بداية كبيرة للمسرح المصرى عمادها جورج أبيض وعبد الرحمن رشدى المحامي وعزيز عيد ونجيب الريحاني وعمر وصفي وأحمد فهيم وأمين صدقي ومحمد بهجت وفؤاد سليم وعبد العزيز خليل والماظ ستاتي وسرينا ابراهيم وصالحة قاصيه واستر واحسان كامل وغير هؤلاء ٠

ومن بين هؤلاء كون جورج أبيض فرقتـه التى عمـلت على مسرح برنتانيا القديم الذى يحل محله الآن محل شملا بشارع ٢٦ يوليو ٠

وقد شهدت القاهرة نهضة مسرحية حين كان شارع عمـــاد الدين يزخر بالمسرح والفرق التمثيلية وخيال الظل والألعاب البهلوانية بل عملت فيه فرق تمثيلية واستعراضية أوروبية كان يجذبها اليهـــا فعلى خشبة الكورسال رقصت أنابافلوفا أثناء طوافها حول العالم ومثلت ساره برنار في أواخر أيامها ٠

واقبل القـاهريون على المسرح حتى ان أصـــحابه الرواد لم تعيهم الوسيلة فقد حدث أن (عزيز عيد) لم يجد مسرحا خاليا حين كان يقوم بتمثيل رواية : (خلى بالك من اميلى) فقرر أن يستأجر صالة جراج في شارع الفجالة فيها ما يشبه خشبة المسرح غير أنها مكشوفة ليس لهـــا سقف ، وارضها واسعة ليس فيها مقاعد ٠٠ ونشر في الاعلانات عن الرواية (ان على كل مشاهد أن يحضر معه مقعد ليجلس عليه) ٠

ولعله كان أول مسرح في الهواء الطلق عرفته مصر ، وتروى فاطمة اليوسف أن كل واحد من المتفرجين كان يجىء بخادم يحمـــل له مقعدا أو (فوتيـلا) ضخما من الفوتيلات المغطاة بالتيل الأبيض التى كانت شائعة في البيوت في ذلك الوقت ، فاذا جاءت أسرة بأكملها احتاجت الى حمولة عربة من المقاعد والفوتيلات ! فكان هذا المسرح من أعجب المسارح في تاريخ التمثيل ٠

ومما يحكى من طرائف المسرح في ذلك الوقت أن جورج أبيض حين انضم الى أسرة رمسيس ، مثل رواية (سيرانودى برجراك) وهى رواية تحتوى على خمسة عشر منظرا ٠ وهى تحتاج الى أداء محكم سريع واستعداد فنى كامل لتغيير المناظر في وقت قصير ٠ وهو مستوى لم يبلغه المسرح المصرى في ذلك الوقت ٠ فكانت النتيجة أن استمر تمثيل الرواية حتى مطلع الفجر ٠

ونام الكثيرون منكمشين من البرد ، فلما خرجوا وجدوا القاهرة وقد استيقظت مع تباشير الصباح ·

وفي اليوم التالي اجتاحت القاهرة موجة من الطلاق بسبب هذا الحادث الفني الفريد ·

كم سمعت عن القاهرة وكم قرأت وكم شاهدت فلا تروى أذنى وعينى على كثرة العب وطول الرشيف ·

ومع ازدهار الفن في القاهرة ، ازدهرت الصحافة الفنية فكانت تصدر في القاهرة سبع صحف فنية غير الصفحات الكاملة للفن في الصحف اليومية الكبرى وكان للنقاد الفنيين في النهضة المسرحية دور لا يقل عن دور القائمين بها أنفسهم ·

وكانت كل جريدة أو مجلة تفسح للمسرح صفحة أو صفحات وتخصص كاتبا من كتابها اللامعين للنقد المسرحى ·

رأينا اهتمام الصحافة بالفن الذى كانت له صحف ومجلات قائمة بذاتها فضلا عن الصفحات في سائر الصحف التى كانت كل منها تخصص كاتبا من كتابها اللامعين للنقد المسرحى · كان الأستاذ التابعى يكتب عن المسرح في « الأهرام » بتوقيع « حندس » والأستاذ ابراهيم المصرى يكتب في مجلة « التمثيل » والأستاذ محمود كامل المحامى في جريدة « السياسة » ومحمد على حماد في « البلاغ » وزكى طليمات في « المقطم » ، وعبد المجيد حلمى في « كوكب الشرق » وظل الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية الأسبق زمنا يكتب عن الفن في « روز اليوسف » أول صدورها ، كما كان الأستاذان ابراهيم عبد القادر المازنى ومحمد توفيق دياب يكتبان أيضا عن المسرح من حين الى آخر ·

وكان أديبنا المازنى من نقاد الفن · ومما يروى عنه ، أنه كان مختصا بكتابة النقد الفنى في جريدة « الأخبار » التى كان يصدرها المرحوم أمين الرافعى . ومن نقاد المسرح في نهضته الأساتذة حبيب جاماتى وجمال الدين حافظ عوض وفكرى أباظة وحنفى مرسى الذى كان يوقع باسم (الأحنف) .

كان شارع عماد الدين يسمى شارع الفن لكثرة ما به من مسارح وفنون · وكانت المسرحيات يعتمد كثير منها على الترجمة ومنها مسرحيات الريحانى التى كان أكثرها فرنسى الفكرة مصرها الرجل الموهوب وأجاد توزيع الادوار ثم يأتى بعد هذا كله (شخصية الريحانى) وكان لها أثر كبير ·

وشمل الاقتباس والتعريب مسرحيات سليمان نجيب وبعض مسرحيات تيمور العصرية ، كما تمثلت المسرحية التاريخ والأساطير كمسرحيات الحكيم وباكثير وعزيز أباظة ٠

هذا الى مسرحيات شعبية تشيع فيها الفكاهة والنكتة أو مسرحيات غنائية (أوبريت) مثل العشرة الطيبة التي لحنها سيد درويش ٠

وقد استطاع سيد درويش فى حياته القصيرة أن يحدث دويا لم يخفت صداه بل امتد شأن النهضات الأصيلة ٠ ومن امتداداته ابراهيم فوزى وزكريا أحمد والقصبجي ومحمود الشريف وأحمد صدقى ٠

وتبعا لهذه النهضة وجدت الأوركسترا والتأليف الموسيقي والمقدمات الموسيقية للمسرحيات كما وجدت المعاهد الموسيقية بل أرسلت البعثات الموسيقية الى فرنسا لتكوين نواة للثقافة الموسيقية ولأول مرة فى الشرق تتكون الأوركسترا الكبيرة على يد مصر ٠ وغدت أوركسترا الاذاعة المصرية تضم جميع الآلات السيمفونية ٠

المقاهى الفنيــة :

وبعد أن تحدثت عن القاهرة والمسرح التمثيلى منه والغنائى وصحف القاهرة الفنية أتحدث عن المقاهى الفنية فى القاهرة فقد كان غير قليل من مقاهى القاهرة فى ابان نهضتها المسرحية أشبه بمنتديات (فقهوة الفن) يجتمع فيها نقاد الفن كما كان يجتمع الأدباء : طه حسين ـ الحكيم ـ أبو شادى ـ د٠ ناجى ـ أحمد رامى ومدرسة أبولو ـ وكانوا ينظمون الشعر فى كواكب عماد الدين ، كما شهدت (القهوة) معارك حامية بين النقاد وأصحاب الفرق المسرحية ٠ كان هناك المقاهى الوطنية ويرتادها العقاد والمازنى وحافظ ابراهيم والكتاب السياسيون ٠

أما (القهوة التجارية) فى مدخل شارع محمد على فكانت منتدى للفنانين خاصــة حتى لكأنها نقــابة لهم ٠ وقد استقل بها اليــوم فلول (حسب الله) ٠

وفى الشارع نفســه مقهى الكتبخانة اذ كان يقع أمام دار الكتب المصرية حيث يتصدره حافظ ابراهيم ٠ وفى أوقات العمل الرسمية يندو اليــه موظفو الدار والأدباء والظرفاء وفى مقــدمتهم الشــيخ عبد العزيز البشرى ٠

وبار اللواء وهو مقهى الحزب الوطنى حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ٠

ويحكي أن أمير الشعراء شوقي كان يؤثر بار سان جيمس وبار صولت وتكتمل الحلقة في العاشرة مساء بعد أن يصل فلا تنفض الا فى الواحدة بعد منتصف الليل ٠

ومن مقاهي الفن والأدب وسائر طبقات المجتمع فى الحقيقة خاصة فى رمضان ، الفيشاوى ٠

وقد حكي لى شاعرنا رامي أنه كان فى شارع خيرت مقهى مرح يعلو فيه صوت ظرفاء هذا الشارع ويستطيع السائر أن يميز صوت امام العبد وحسين الترزى وهما يتنادران ويتضاحكان والأخير من أساتذة أم كلثوم في فن النكتة ٠ وكانت غاليتنا تقول ان أحلى كلمة سمعتها من حسين الترزى قوله فى الشتاء : لو كان الواحد يقدر يحط رجليه فى جيوبه ٠

أما مقاهي روض الفرج الخشبية فى حمى النيل وقربه فقد كانت تعج بالفنانين أصحاب الأسماء الكاريكاتورية وهى بأنسها الشعبى مصيف القاهرة الشعبى ٠

ومن بين هذا الحشد الحاشد من مقاهي القاهرة مقهى لا ينسى هو « كافيه ريش » ولياليه الغنائية والتاريخ الفنى للقاهرة يسجل لهذا المقهى الليالى التى أحياها صالح عبد الحي والشيخ أبو العلا وتلميذته الأستاذة بالموهبة والدرس معا ، أم كلثوم التى جاءوا بها اليه كما يقول رامي ، طفلة تردد التواشيح فكان صوتها ينفذ الى القلب والسمع ويسرى فى مسامع القاهرة صافيا نقيا ماسيا لا ينسى كما سمعه جيلى بعد هذا بسنوات عديدة ، وماسيته أشد توهجا ٠٠ وكما ستسمعه أجيال عديدة فأم كلثوم بعد الرحيل أطول حياة وأطول قامة وهامة ٠ انها علامة ونقطة تحول ٠٠ **انها أم كلثوم** ٠

تحدثت فى الصفحات السابقة عن مقاهي القاهرة بوصفها منتديات ثقافة وفن وأدب ٠ وقد شدنى حديث المسرح فوقفت عنده أكثر من مرة ٠ دعونى الآن أتحدث عن نيل القاهرة أيام كان النيل تحتفل به مصر كلها وتحتفل به القاهرة ٠

طالما ابتهجت طفلة بهذه الاغنية التى كانت ترددها دروب القاهرة عند الفيضان معلنة فرحنا بفيضه ٠

يقول المنادى :

وحل جبر الخاطر ويردد الأطفال وراءه عوف الله
دا شيء من السنة للسنة عوف الله وتعيشوا الى كل عام عوف الله

والنيل السعيد له فرحة عوف الله وكل عام يجينا خاطر عوف الله
تخلى له الأرض ليسكن عوف الله ومجيئه به يسر الخاطر عوف الله

والاغنية طويلة جميلة سجلها على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية بل سجلها ادوارد لين فى كتابه عن عادات وسلوك المصريين المحدثين ٠

The manners and Customs of Modern Egyptians.

يقول ادوارد وليم لين :

ويعلن ارتفاع النيل فى شوارع العاصمة يوميا ، ابتداء من السابع والعشرين من بؤونة (الثالث من يوليو) أو ما يقرب من ذلك ٠ وهناك عدة منادين يقومون بهذه الوظيفة ٠٠ فيختص كل منهم بقسم من أقسام القاهرة ٠

وكان المنادى يجول مبكرا فى الصباح ويصحبه ولد ويعلن أهل الحى ببشرى فيضان النيل ٠

وقد كنت أعرف الفيضان بطريقة أخرى فقد كانت جدتى تلبس النيل بالألفاظ طبعا ألوانا فتقول البحر لابس الجبة الخضرا أى مياهه خضراء وتكون هكذا عادة فى شهر يونيه والخضرة هذه ظلال النبات المائية عليــه حين يكون المجرى منخفضا ٠٠ وتقول البحر لابس الجبة الحمراء وذلك عندما تكون مياهه محملة بطمى الفيضان ٠

وتسمع أذنى منها ومن الجارات والقريبات ان النيل له يوم فى السنة ينام فيه ٠ والسعيد من يحظى منه برشفة أثناء نومه ففيها روح من قوة ، ونفحة من حياة ، ولمحة من جبروت والشقى من دنا من النيل ساعة يقظته ٠٠ انه عندئذ يطويه ٠ وهى مقولة مصرية قديمة ، وعندنا فى الصعيد ٠ وتردد هذا أيضا فى القاهرة أن فلان يمسح الريال بفركة من أصابعه ٠٠ وتسألهم كيف ؟ يقولون عن ايمان ٠٠ انه قد مسه عرق الصبا ، لاعتقادهم انه فى ليلة القدر يقف الماء فى النيل لحظة ، فمن يشرب منه فى هذه اللحظة يمسه عرق الصبا ٠

وهو كما ترى ، امتداد لمعتقداتنا القديمة فيه ٠

ولكننى على شغفى صغيرة بهذه الحكايات كان أهم منها عندى أن أرى احتفال الفيضان أى الزفه ٠٠٠ وطالما سعيت الى هــذه الزفه كلمــا حل

---

(١) نقل الكتاب الى العربية ، الأستاذ عدلى طاهر نور بعنوان (المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم) ٠

موعدها وأكون في القاهرة .. حتى حين سارت بي الأيام واخترت موضوع رسالتى في الدكتوراه « النيل في الأدب المصرى » سعيت من جديد الى الشاطيء بوعي أكبر لحضور مهرجان النيل وسعيت قبله الى سراى المحافظة لارى كتابة الحجة الشرعية التي يحضر كتابتها مندوب عن رئيس الدولة ملكا أو رئيس الجمهورية كما يحضرها العلماء والمدنيون والعسكريون ورجال الصحافة والاذاعة والتجار والأعيان .

وبعد القرار الصادر أمامهم من رجل وزارة الأشغال المنوط به قياس النيل بمقياس ـ الروضة وسماع شهادة الشهود الذين يندبون عادة من وزارة الشئون الاجتماعيه .... بعد الاقرار من هـؤلاء جميعا بأن النيل بلغ بمقياس الروضة ط ١٩ ٢٢ ذراعا واقرارهم بأنه ببلوغ فيضان النيل هذا المقدار يتوفر رى الأراضى المصرية . يعلن مفتى الديار المصرية وفاء النيل المبارك وبذلك يتعين وجوب جباية أنواع الضرائب المقررة الخ.

الذى استوقفني في الحجه ختامها بهذه العبارة (وتمت بنعمة الله تعالى على هذه البلاد بكمال فيض نيلها المبارك سبب نماء رزقها ومصـدر حياتها ، فحق علينا جميعا حمده سبحانه والثناء عليـه بما هو أهله . وشكره على ما أولاه من نعم ، حمدا وشكرا يقربان من رحمته ويجذبان رضاه وتوفيقه . وانا لنضرع الى الله العلى القدير أن يديم على وادى النيل نعمة خصب أراضيه وكل ما يوفر له النماء والرخاء ولأهله السعادة والاطمئنان) .

وقد حرصت وقتئذ على صورة من هذه الحجة أعتز بها بل سعيت فى طلب أقدم حجة محفوظة لأتبين من خلالها تطور الصيغة أو مراسم الاحتفال فكان أقصى ما أمكنني الوصول اليه نص حجة وفاء النيل ١٩١٥ من دار المحكمة العليا الشرعية .

أما الاحتفال فقد رأيت بعيني كيف تحتشد الحكومة والشعب على الشاطيء . وركبت الباخرة (كريم) ، ورأيت (العقبة) وهي تسير من ساحل روض الفرج باعلامها بين عزف الموسيقى ، وقصف المدافع ، وخرير الموج تحدوها الزوارق البخارية لتحيتها .. وكلما أهلت باخرة نيليـة أطلقت صفارتها تحية لها . وكلما لاحت لقرية تدافع الأهالى نحو الشاطيء يهللون متواثبين من الفرح . رأيت الأيدى المشققة والوجوه التى لوحتها الشمس .. الرجال والنساء يحملن الصغار على أكتافهن بيد ويلوحن لنا بالأخرى .. رأيت سيدة ريفية تنزع خمارها لتلوح به ورأيت رجلا نزع جلبابه ومضى في التلويح حتى ابتعدت بنا (الباخرة عنه) .

كان الشاطىء بعيدا نوعا فلم أميز وجوه المواكب الساعية اليه • ولكنهم كانوا فى خبب يوفضون وهم يصيحون ويغنون وكانت العقبة تصفق لهم أو معهم ، فاذا أجدت الباخرة في سيرها ، هرولوا على الشاطىء ليحدوا ركبها وكان يوم الوفاء قد نسج من ضياء وماء • ومناديل وأهازيج وزغاريد وهمرجة وزياط وحمائم بيض ورايات خضر وجنود وبنود وموسيقى حتى اذا بلغت (العقبـــة) « باســـوس » عادت ثانيـــة الى ساحل روض الفرج ••

ما هي قصة العروس ؟

كنت أتملى النيل وأشارك في أفراحه فى يوم وفائه •

رأيت مواكب الأحيــاء على شاطئيه

ومواكب المــوج بين ضــفتيه

ومواكب النور في السماء تترسل اليه

ومواكب الشجر والنبت على جانبيه

ولكنى لم أر عروسا تلقى فيه • وعندما درست هذا الموضوع فى رسالتى عنه تبين لى أن قصة عروس النيل خرافة تســـتند الى أسطورة روجها المؤرخ الاغريقى بلوتارك وروجها بعده كتاب الاغريق واللاتين خرافة تقول أن « اجبتوس » ملك مصر أراد اتقاء كوارث نزلت بالبلاد فنصحه أتباعه أن يضحى بابنته بأن يلقيها فى النيل ففعل ، ثم ناء بالرزء الذى ألم به ، فألقى بنفسه في النيل فهلك كما هلكت ابنته •

ولكن هذه الخرافة لا أساس لها من الصحة بدليل أنها لم يرد لها ذكر فى الكتابات المصرية • وهى مع ذلك مصدر الأسطورة التى ذاعت فى الناس قرونا ، ونسج حولها الخيال من فنون الرواية والقصص ما جعـل كثيرين يتوهمونها حقيقة حدثت بالفعل وأنها كانت تتكرر فى كل عام •

لقد كان على النيل محاريب لحابى اله النيل وكان يوضع فى كل محراب طاقة من الزهر تجدد فى كل يوم ، وستة تماثيل من خشب الجميز لحابى اله النيل وستة تماثيل أخرى من الخشب نفسه للالهة « ربيت » زوجة النيل • هذا عدا تماثيل أخرى للاله حابى مصنوعة من الذهب والفضة والأحجار المصرية المختلفـــة الأنواع كالمرمر واللازورد والزمرد والبلور الطبيعى وكانت هذه التماثيل كلها تلقى فى النيل يوم الاحتفال بعيد حابى فى بداءة الانقلاب الصيفى ويؤتى لها بجديد غيرها فى تلك

المحاريب ، الى أن يحل العيد بعد عام فتلقى فى النهر قبيل فيضانه ، ثم يؤتى فى المحاريب بتماثيل جديدة فى كل عام ٠

ترى هل استمد الخيال قصة عروس النيل من هذه التماثيل التى كانت تلقى فى النهر فنفخ الحياة فى خشب الجميز وفى غيره من المواد التى كانت تصنع التماثيل منها ؟ وهل الالهه « ربيت » زوجة النيل هى التى أمدت الخيال بفكرة العروس العذراء النابضة بالحياة ؟ أيا كان الامر فالقصة كما نرى أسطورة من أولها الى آخرها زينها الوهم ، ثم خلع القدم على الوهم صورة الحقيقة (١) ٠٠ **حتى الشاعر احمد شوقى سايرها قائلا :**

فى كل عام درة تلقى بـــلا	ثمن اليـــك وحـرة لا تصدق
حول تسائل فيـه كل نجيبة	سبقت اليك متى تحـول فتلحق
والمجد عنـــد الغانيات رغيبة	يبغى كما يبغى الجمال ويعشـــق
زفت الى ملك الملوك يحثهـا	دين ويدفعها هـــوى وتشـوق
ألقت اليــك بنفسها ونفيسها	وأتتك شـــيقة حـواها شيق
خلعت عليك حيـاءها وحياتهـــا	أأعــز من هذين شىء ينفـق
واذا تناهى الحب واتفق الفـــدى	فالروح فى باب الضحية أليق

والخطورة فى موسيقية شوقى وعبقرية أداء أم كلثوم كصوتها فى هذه القصيدة التى ترسم غناء وكلمات ، لوحة ملونة تضج بالحيوية والحياة وهى أسطورة ٠

لم يعد للوفاء احتفال :

من يصدق أننا أبطلنا الاحتفال بالنيــل حين استحدثنا احتفالات بمناسبات لا تشائيه أو حتى تدانيه ٠٠ احتفالات لا يحس بها الوجدان المصرى ولا يشارك فيها عن انفعال حقيقى أو رغبـــة صادقة أو عاطفة حميمة ٠٠ ويرى النيل هذا الجحود ويمضى فى سيره ٠٠ فى كبرياء الواثق من نفسه ، الشاعر بقيمته فاذا بالمناسبات المصنوعة تختفى أو تبطل ويظل النيل ٠ النيل الذى تغنى به حتى الغزاة تغنى به شاعر الرومان (فرجيل) وأشار اليه فى ملحمته (الاينيادا) وتغنى به من شعراء الانجـــليز : « شلى » و « كيتس » و « لى هنت » ٠

---

(١) التفاصيل فى كتاب (النيل فى الأدب المصرى) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد ٠

وصـــلت من أجل زيادته الكنيســـة المصرية ٠٠ ما تســـميه « أوشية المياه » التى ترددها بدءا من ثانى عشر من شهر بؤونة الى التاسع عشر من شهر بابه مما يضمه كتاب الخولاجى المقدس ٠ وفى كتاب (دلال أسبوع الآلام) دعاء موصول من أجل النيل وأن يفرح به وجه الأرض ٠ وعيد الشهيد وعيد الغطاس المسيحيان انما هما احتفالان نيليان ٠

كما صور القرآن الكريم ، النيل ، مسرحا لحوادث التاريخ ورسالات الأنبياء بما رواه من أخبار موسى والخضر على صفحته أو فى واديه ٠

وصوره شغل المصريين الشاغل من خلال حلم العزيز وتفسير يوسف له وما ترتب على الحلم من أحداث ٠ وقد جاء فى المقريزى فى باب « ذكر مقاييس النيل وزيادته » ان بعض المفسرين قالوا : (ان يوم الزينة هو يوم وفاء النيل ٠ ومن هؤلاء النويرى ويميل الى هـذا الرأى الأستاذ عبد الوهاب النجار فى حديثه عن قصص الأنبياء ٠

واحتفل الفاطميون بكسر الخليج ولهج الشعب بالنيل فى الأغنية والموال والقصة والحدوتة والمثـل والفزورة وقد جمع ماســـبيرو ، بل واليونسكو ، الكثير من هذا الفيض ٠

كان عيد الفيضان عيدا فى كل قلب مصرى يستوى فى هذا العلماء والبسطاء فهل يعود هذا العيد وفاء للنيل ؟ (١) الذى يصدق الاحتفال به :

لى فيك مدح ليس فيه تكلف　　املاه حب ليس فيــه تملق
مما يحملنا الهـوى لك أفرخ　　سنطير عنها وهى عندك ترزق

---

(١) ناديت سنة ٨٥ على صفحة « الأهرام » بعودة الاحتفال بوفاء النيل ٠ وقد استجابت محافظة القاهرة وجرت مراسيم الاحتفال فى سبتمبر سنة ١٩٨٥ ٠

القاهرة بين الأمس واليوم

صور غابت عن القاهرة :

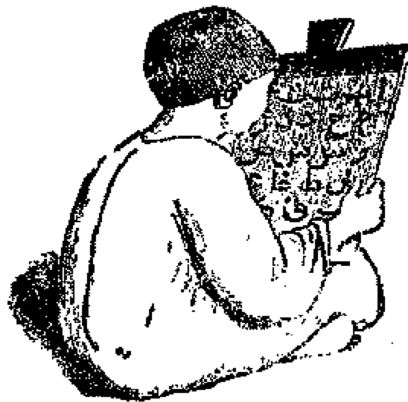
القاهرة الكبرى التي تروع العين بضخامتها وأبعادها ٠٠ القاهرة الكبرى هذه دخلت كلها في كياني الصغير ٠٠ أيام عمري خيوط منسوجة من معالمها ٠٠ من أحيائها ٠٠ من لغتها ذات اللهجة العذبة ٠٠ من أغانيها ٠٠ من أفراحها من أتراحها ٠٠ من فنونها ٠٠ من علومها ٠٠ من صناعاتها وحرفها من بدائعها من روائعها ٠٠ جوايا حبيبتنا القاهرة ٠٠ داخلي ٠٠ في دمي ٠

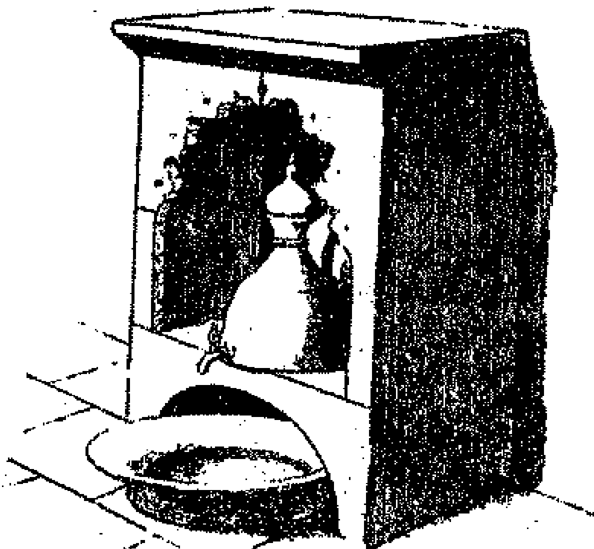
أقول هذا الآن بعد أن وعيت ولكنني قبل الدراسة أحسه بفطرتي ٠٠ كنت أعدأ بعد حركة أمام كل ظاهرة ٠٠ أمام كل صانع : **الفطاطري** وهو يدحو العجينة ويديرها بحركة خاصة بيده دوائر تتسع مع كل مرة ٠ وأكبر وأقرأ شعر ابن الرومي في صانع الرقاق فلا يأخذ حفظ شعره مجهودا مني ٠٠ اني أعرف الصورة حقيقة ملموسة ٠ وفي حي الخيمية أكاد أحبس أنفاسي وأنا أرى الأصـــابع المدربة تنمنم وترسم بالقماش والألوان ٠٠ ما نراه على تروك الفراشة باصطلاح المهنة ٠ ومن العجيب أن الرسم ، المفروض ، اسلامي ويستعمل في مناسبات اسلامية ولكنه قائم على اللوتس ٠ أسير والقلب مشغوف بالرؤية ٠٠ في روحي ظمأ ملهوف على معرفة ما تراه العين وما أكثر ما يرى ويتراءى في القاهرة .

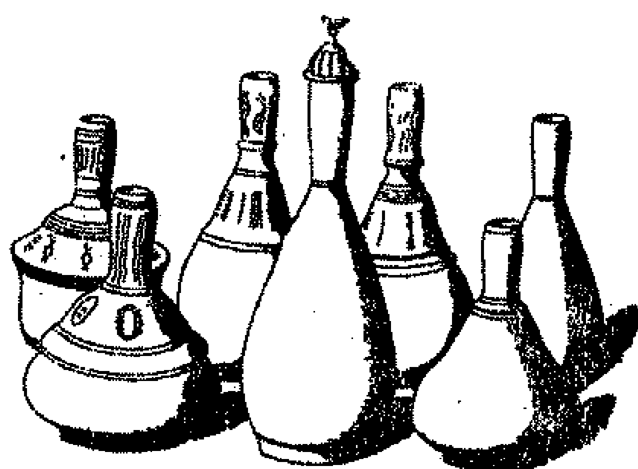
انها في باب الحرف وحـــدها التي كانت تحيط بي في القـاهرة الشعبية حشد حاشد ، لقد عد علي باشـا مبارك في خططه ١٩٨ حرفة ووصف التقاليد الجميلة التي كانت تحـكم أهل هـذه الحرف وتسـود أوساطهم ٠٠ وقد ظلت هذه التقاليد التي تدل على أصالة وحضارة وأصول

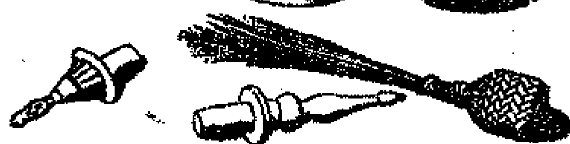




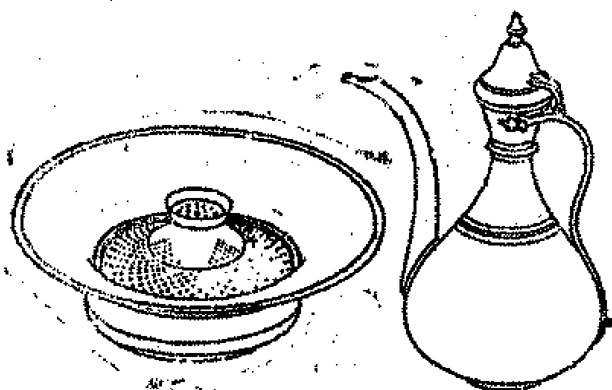


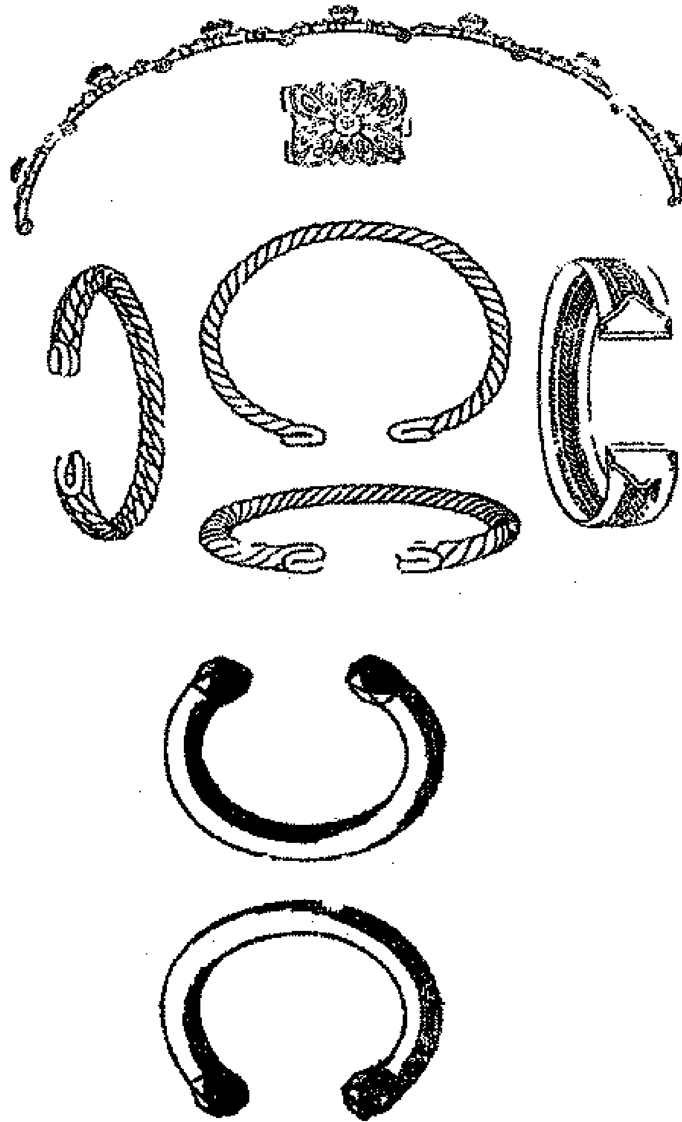


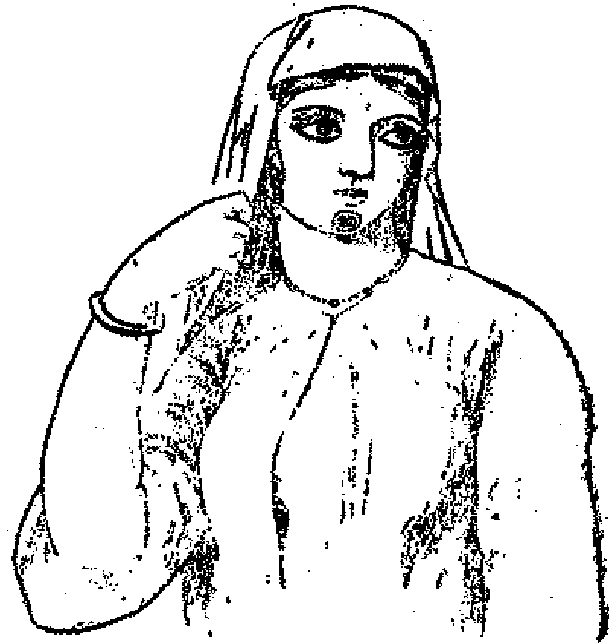




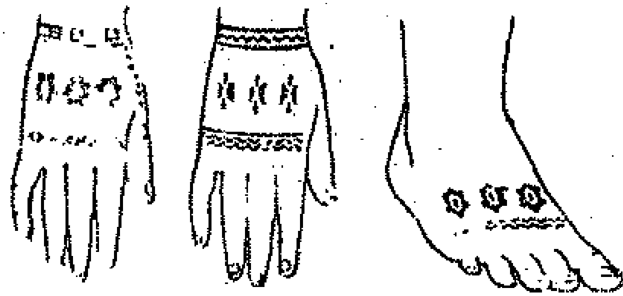


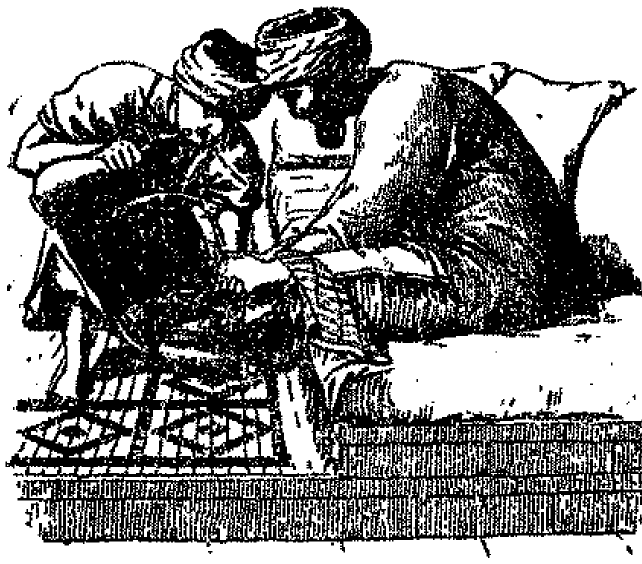


















الى النصف الأول من القرن العشرين ووعينا فى الخمسينات طرفا منها ولهذا أقف عندها تحية للقاهرة مدينة البناء والانشاء والفنون والعلوم والصناعات والحرف ·

يقول صاحب الخطط التوفيقية :

(لكل طائفة شيخ ومخاترة ونقباء واسماؤهم مقيدة فى المحافظة الدائرة البلدية وكان كل من أراد أن يصير معلما فى صنعته لا يتمكن من ذلك الا بعد مهارته فيها بعمل شيء دقيق وخدوا بالكم من «دقيق» هذه في صنعته يشهد له بأنه يستحق أن يكون معلما ·· والاسطاوية حينئذ لا ينالها الا بعد أن يشهد له معلميه وباقى المعلمين من صنعته ويخبرون شيخ الطائفة بذلك فيحضره ويختبره فان وجده أهلا لأن يكون معلما قلده اياها ·· أعزائى القراء أحسبكم مثلى تغالبـــون الابتسام · أو تكنون الاحترام لهؤلاء المعلمين والمعلمين ·· الذين يصدقون مع أنفسهم ومع تلاميذهم ومع وطنهم فلا يحسبون عليه جاهلا يجيزونه ·

ومن الطريف أنه كما يقول علي باشا مبارك أنه حتى طائفة الصرماتية والمزينين والحمامية كانت لا تزاول مهنتها الا بعد امتحان حقيقى على مراحل تمثلها عقــد ثلاث فالعقدة الأولى تسمى **الاسطاوية** ويحلها لطالب المهنة ، معلمه الذى رباه وعلمه الصنعة ، والثانية تسمى **الرتبة** ويحلها شــيخ الطائفة والثالثة يحلها أحد الاسطوات الموجودين بالمجلس · وهكذا بقية الطوائف من نجارين ونحاتين ونقاشين ومرخمتية ·

ماذا نرى الآن ؟ آلاف الأيدى المدربة الماهرة هاجرت الهجرة المؤقتة او الدائمة الى البلاد العربية والأجنبية · والباقون يرفضون الصبيان أمام الزام قانون التأمينات الاجتماعية بالتأمين على الصبية من أى عمر ، فى تعميم · فحدثت الفجوة التى امتدت نحو عشرين عاما والتى عانينا منها كثيرا سواء فى العمالة أو ردود الفعل الأخرى من اصطياد هؤلاء الأولاد فى ألوان الجرائم المختلفة · ونحمد الله أن تعدل حديثا قانون التأمينات فاقتصر التأمين على من يزيد سنهم عن ثمانية عشر عاما ·

على أن معلم الصنعة اليوم أو الصبيان ، تحت ضغط العصر اللاهث وطابع الكسب السريع ، لا يبذلون الجهد القديم أو يحافظون على تقاليد الصنعة · غدت المسألة فهلوة ·

وتبلغ الدقة بأهل القاهرة أنهم يقسمون داخل الحرفة الواحــدة فطائفة النجارين تقسمهم القاهرة الى :

نجارى طواحين ــ نجارى سواقى ــ نجارين دقى ــ نجارى مراكب ــ نجارى عربات .

وانظر الآن الى حبيبتنا القاهرة فى الزحام فارى اشـــياء وتغيب أخرى . وتوحشنى القاهرة وأنا فيها .. كيف ؟ لا ادرى .

تحدثت عن حرف القاهرة التى شاهدتها صغيرة والتى لحقها تغير كبير الآن .. لقد غدوت أفتقد اليوم ، صورا قد يعدها البعض بدائية أو متخلفة ولكنها حبيبة بما هى جزء من القاهرة وجزء من أيامى الأولى فيها .. بنت البلد بملاءتها اللف وجسمها الملفوف المشوف .. كشراع المركب فى النيــل .. أو كما يقول بيرم : بنت البلد فى المــلاية اللف ياوله ياوله .. بنت البلد تركت الملاية اللف وأصبحنا نجد فى الأحياء الشعبية عدة صالونات تجميل .. بنت البلد بعد الملاية اللف تسرح شعرها عند الكوافير لأنها تعمل .. وهى بحكم العمل وبيئته الجديدة ، تحرص على مظهرها بقدر ما تطيق حالتها المادية ولو كانت عاملة فى مصنع .

بائع العرقسوس :

وكان يمشى فى مهرجان تسبقه نغمات طاساته واناء العرقسوس على الرغم من حجمه وامتلائه يجعل له صدره مهادا ووسادا ويمشى يتعاجب واذا صب فى الأكواب يباعد بين الكوب فى يده وبين البزبوز وينزل العرقسوس صانعا بدوره رغوة فى أعلى الكوب .

ونحب نحن أطفال القاهرة العرقسوس ، ويحب الرجل حرفتــه ويترجم حبه نظافة وشفافية ومعاملة دمثه وتقديم حسن فيترنم صوته على الرغم من ارتفاع طبقته بكلمة : شفا أى شفاء ... ان عرقسوسه شراب وشفاء .

وباعة القاهرة المتجولون يتغنون بسلعهم . ان الانســـان المصرى أليس لطيف يحب الغناء ويطرب للسماع فالمشمش عنب وعناب وهدية للأحباب والبلح لا تين ولا عنب زيك يا رطب ، والموز صـــوابع الست والكمثرى قنانى العسل وفتافيت السكر حتى الفجل ريان ورور .. كل شىء تدلله القاهرة ذات الدلال .

ومن الصور التى تعلقت بها صغيرة وافتقدها الآن : **الســقا** . هذا الانسان البسيط كان يشعر أنه رسول النيل الى البيوت . انه يحمل الماء حياة وشفاء وهناءة .

وتحل حنفية ست سنية محله ولكنها لا تخلف فى فنون الأدب والرسم ما خلفه السقا من روايات ولوحات ·

ومن الصور التى اختفت من القاهرة « **القراقوز** » وطالما افتقدتنى جدتى وأكون مستغرقة فى متابعة الأراجوز · يقول الدكتور أحمد أمين (شخصية قراقوز محبوبة جدا عند المصريين وخصــــوصا الأطفال فهى اشبه ما تكون « بميكى ماوس » ·

رأيت أنا فى طفولتى الأراجوز واليوم أطفال المصريين جميعا يتمتعون (بميكى ماوس) فى المجلات وعلى شاشة السيدما داعين للفنان العظيم .. « والت ديزنى » ·

اختفى بائع الزبادى المتجول بطواجن الفخار الصـــــغيرة وصينيته المغطاة بغطاء كالقبة شفاف أبيض وبداخله شمعة أو لمبة سهارى ينعكس نورها ويعطيه شكلا حالما · وصاحب اللبن الزبادى أو الحليب ينادى « قشطة » · فاذا كان الوقت صباحا ، زاد : نهارنا أبيض ··

الحضارة ذوق والذوق مافاتش باب النصر ·· مافاتش القاهرة ·· مافاتش مصر ·

الآن الزبادى فى علب كرتون منزوع القشدة ·· والحليب بودرة فى علب صفيح نسبة الدسم فيه ٦٪ أو أقل ·

اختفت الماكينة والفونغراف وحل محلها الراديو والريكوردر كما حلت محلات العصير محل بائع العرقسوس ·

اختفى الزار وحل محله السامبا والرومبا ·· وهذا اللون من الرقص صور من الزار وراءه أعصاب مشدودة ونفـــــوس مكدودة وقلق يتنفس أو يغرق نفسه فى الصخب ·

اختفى النحاس طشوتا وآنية وحل محله الألمنيوم فالتيفال الذى أثبت البحث العلمى ضرره ·· وكالعادة تتخلص أوربا مما يكشف العلم ضرره ونظل نحن سادرين فيه ·· تماما كأقمشة النايلون التى ثبت ضررها حين تأكدت قيمة أقمشتنا القطنية خاصة فى جونا الحار ·

ليس هذا فقط ·· الصور تتـــــابع أمام عينى من ماضى وحاضر حبيبتنا القاهرة ·

---

(١) من اجمل ما كتب الأستاذ يوسف السباعى روايته (السقا مات) ·

ومن الصور التي اختفت زمنا من القاهرة : « **بيت العائلة** » ·· أصبح الأبناء يستقل كل منهم ببيت ·· أقصد شقة ثم عاد من جديد تحت ضغط الكثافة السكانية وأزمة المساكن ، بيت العائلة ولكن مع الفرق ·· كان السكن في بيت العائلة ، ومعها ، عن عاطفة ·· ولكنه غدا الآن عن اضطرار ·

ومن الصور التى اختفت من القاهرة موكب الجهاز ·· جهاز العروس وكان أهلها يحملونه على عدة عربات مكشوفة تتقدمها موسيقى القرب أو موسيقى ترية وفي الحقيقة أن الجهاز لا يحتاج هذا العدد من العربات التى يحمل عليها للاستعراض ولكننا من طبعنا التهويل أو التهوين ·

وبمناسبة الجهاز بطلت موضة العوالم وكان أصحاب الفرح يسمون اليهن في شارع محمد على ويتفقون معهن ويتبارون ليلة الفرح في رش النقوط اليهن وكانت لهؤلاء العوالم أغان خاصة بهن لهن لغة خاصة بهن وهى لغة السيم التى قص منها أطرافا الأستاذ توفيق الحكيم في كتابه (عوالم الفرح) هذا الكتاب الذى أهداه بدون أدنى حرج أو تحرج الى احدى هؤلاء العوالم قائلا : (الى الأسطى حميدة الاسكندرانية أول من علمني كلمة الفن) ·

ومضى في هذا الكتاب يصفهن : هيئتهن ·· حديثهن ·· ملابسهن وخاصة الصفا البراق على الشعر والمنديل الترتر في مقدم الرأس ولغة السيم وهى العملة الخاصة بهن فمثلا اطسا معناها أسطى فعندما تنحدر الملاية عن رأس الأسطى حميدة ويظهر شعرها بزينة الصفا البراق وتلتهم عيون الرجال الأسطى حميدة تسرع راقصة الفرقة الى تنبيهها مخاطبة اياها بالسيم أو اللغة الاصطلاحية بين العوالم كما يسميها الأستاذ توفيق الحكيم :

اطسا ·· يا اطسا ·· أفصك نايب أى اسطى يا اسطى صفاك باين ·

وهكذا بدون مدرسة وحصص نحو ، برع العوالم في الاعلال والابدال الذى كان مدرسو النحو يحشرونه في رءوسنا ، حشرا أشقانا ، وأشقاهم أكثر ، هؤلاء الفدائيين ·

ومن الصور التى ذهبت من القاهرة وحل محلها غيرها ··

المحمل :

وقد رأيت المحمل فى طفولتى ، المحمل ، مرة واحدة لم تخلف في ذهني منه الا بريقه والجمل الذى يحمله · وقد كان مشهدا يشد الناس ·

ولما كبرت فهمت قول جدتي في المدح (جمل المحامل) فالجمل في حد ذاته يتمتع بصفات طيبة منها الصبر والكبرياء أيضا ·· فأن يكون أيضا جمل محامل أي جملا مختارا لغرض تحفه البركة فهو شيء يستحق ··

وأستاذنا الدكتور أحمد أمين يصف المحمل وصف شاهد عيان فهو اطار مربع من الخشب ، هرمي القمة له ستر من الديباج الأحمر وعليه زخارف وكتابة مطرزة تطريزا فاخرا بالذهب على أرضية من الحرير الأخضر أو الأحمر · وله قماقم أربعة من الفضة المطلية بالذهب ، وينتهي هذا الكساء بشراريب تعلوها كرات فضية يتفرع منها سلوك دقيقة والناس يتبركون بالمحمل ويلمس الكسوة ويقبلون شراريبها ·

ويحمل المحمل جمل ضخم يتمتع أيضا بما يتمتع به المحمل من تبرك به واعفائه من العمل بقية السنة ·· أي جمل عمده أو كما تقول جدتي جمل المحامل وكان احتفال القاهرة بالمحمل ويجرى مرتين في العام مرة عند طلوع الناس الى الحج ومرة عند عودتهم منه · وهو يثير في الجماهير عواطف قوية شديدة نحو الحج ·

ومن الصور التي اختفت أو على الأقل تراجعت الى زوايا منسية : الزار · وقد وصف الزار ، أستاذنا الدكتور أحمد أمين في كتابه الشيق (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية وصفا مفصلا وما يتبعه من (كدية) : وكرسي الزار ألوان حسب الأسياد واللون المناسب لكل منهم ودقات الدفوف ·

ومن الصور التي اختفت من القاهرة « **الحنطور** » وأحسب أن وراء اختفائه عاملين : الأول العصر اللاهث الذي لم يعد فيه مكان للتخطر على أنغام خيل كلها حنية كما يقول مطربنا كارم محمود ·· والعامل الثاني الزحام ثم انتشار وسائل المواصلات الحديثة والسريعة على المستوى العام والخاص ووجود الصناعات الكثيرة وأبواب الكسب المضمون ·

ولكنني لا أنسى الحنطور صغيرة ، فقد كنت أجد في ركوبه متعة ورخاء الاسترخاء ؛ ولا أنسى الحنطور كبيرة، فقد درست شعر أمير الشعراء شوقي وحياته ، وللحنطور فيها قصة . هذه العربة المدرجة ذات الكنبتين المتقابلتين الصغيرة منهما مكشوفة لأن الكبود كان يغطي الكنبة الكبيرة وكنت على كل حال أختار الجلوس على الكنبة الصغيرة لأرى الشارع والناس أكثر · أما مقعد الأسطى السائق فقد كان مرتفعا يطل على جوز الخيل ويمسك في يده كرباجا طويلا · وفي الخلف يتسلق أو يتشعلق الصبية الذين يلعبون أو يمرون في الشارع فاذا فات أحدهم متعة اللحاق بالحنطور والتعلق به من الخلف وشعر أن رفيقه أحسن منه حظا ، صاح من غيظه (كرباج ورا ياسطى) فيعرف الأسطى ما حدث من وراء ظهره ويتحرك

كرباجه يحسم الأمر ولكن الصبي يكون قد فر هاربا وقد كان هذا الأسطى وزملاءه أولاد بلد « يفهوها وهى طايره » ـ طبعا الصواب يفهمونها ولكنى أعنى المنطوق الشعبى فى هذا الموضع ـ وكأنهم فى مجلسهم المرتفع يرون أكثر ٠٠ بل كانوا يرون بظهورهم فقد كانوا يفهمون نوعية الركاب بالمذاقة والأحبة منهم خاصة فيلبون طلباتهم وهم يبتسمون (على راسى ياهانم وعنيه) ٠

ما حيلتى فى حبيبتى القاهرة ، وذكرها يفجر فى ينابيع دفاقة ٠ انها القاهرة ٠

لقد ولد المنطور قصائد كاملة من ديوان شوقى من أعذبها وأقربها الى القلب المصرى ، قصيدة النيل ٠ فقد كان يحلو له ، وبيته الذى سماه (كرمة ابن هانىء) على النيل أن يتنزه فى الأصائل على شاطىء النيل فى حنطور ٠٠ ويتأمل الشاعر المترف النهر المترف وكان النيل مترفا على أيامه لا يكدر صفوه أو يرنق نقاءه ما يحدث له هذه الأيام مما نرتكبه فى حقه وهو موضوع طويل ٠

وفى هذه السبحات بدا النيل فى عين شوقى ، وما جاوز الصواب ، بدا النيل الطاعم الكاسى الصانع الفنان ٠٠ رأى النيل بحرا بالمكارم زاخرا عذب المشارع مده لا يلحق وهو كعبة القصاد ، يحج اليه الوراد بين قاص مفتون بشطيه ودان يرمق ٠ ويهمس شوقى مفتونا :

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من ... عليا الجنان جداولا وتترقرق
وبأى عين أم بأية مزنة ... أم أى طوفان تفيض وتفهق
وبأى نول أنت ناسج بردة ... للضفتين جديدها لا يخلق

حتى اذا انتهت دهشة الاعجاب أو اعجاب الحماسة ، شرع فى الوصف :

فى كل آونة تبدل صبغة ... عجبا وأنت الصابغ المتأنق
أتت الدهور عليك ، مهدك مترع ... وحياضك الشرق الشهية دفق
تسقى وتطعم لا اناؤك ضائق ... بالواردين ولا خوانك ينفق
والماء تسكبه فيسبك عسجدا ... والأرض تغرقها فيحيا المغرق

ويمر الشريط الطويل أمام شوقى فيذكر حيرة الانسانية طويلا فى الوصول الى منابعه وافتتان قدماء المصريين به الذين قالوا فيه فى بساطة تاسر مما ترجمه ارمان (انك أعظم من البحر ٠ حقا انه منبع اللؤلؤ

والمرجان ولكنك تنبت الشعير ومادام النـــــاس لا يأكلون الجوهر الحر فالشعير أحسن) . ويتلمس شوقي لهم العـــذر في اعزازه من اعجازه فيقول :

دين الأوائل فيـك دين مروءة | لم لا يؤله من يقوت ويرزق
دانوا ببحر بالمـــكارم زاخر | عـذب المشـــارع مده لا يلحق

اعذروهم لأنهم :

دانوا ببحر بالمـكارم زاخــر | عـذب المشــارع مده لا يلحق
متقيــد بعهوده ووعـــوده | يجري على سنن الوفاء ويصدق
يتقبل الوادي الحياة كريمـة | من راحتيك عميمة تتـــدفق

ثم انتقل المنطور بشوقي الى ناحية أخرى من الجزيرة وانتقل شوقي الى دفقة أخرى من القصيدة . استعرض موكب الغزاة ولكنهم كلهم راحوا ... انداحوا وبقي النيل .

بقيت أنت يا نيل .. تتواصل الحضارة على أرضك وتتراســل العطايا من فيضك حتى بعد أن ينتقل الحكم الى غيرك فاذا بالذي انتقـل الصولجان لا الهيلمان والحكم لا الحكمة .

ويمني شوقي اللحن الختـــامي في القصيدة وهو ختـــام لهذه الصفحات :

يانيل أنت بطيب مانمت الهـدى | وبمدحة التـــوراة أحرى أخلق
أصل الحضارة في صعيدك ثابت | ونباتهـــا حســن عليك مخلق
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت | فاظلهـــا منك الحفي المشـــفق
ملأت ديارك حكمة مأثورهـــا | في الصخر والبردي الـكريم منمق
وبنت بيوت العـــلم باذخة الذرى | يســـعى لهن مغرب ومشرق
واليك يهدي الحمد خلق حازهم | كنف على مر الدهـــور مرهق
يبنون لله الكنانة بالقنـــا | والله من حـــول البنـاء موفق

وكم من قصائد وأغان وأناشيد لهجت به وترنمت ولا تزال تحلو على الترديد لأنها صادقة لا شبهة فيها من رياء أو افتعال ..

لي فيك مدح ليس فيه تكلف | أملاه حب ليس فيـــه تملق
مما يحملنا الهوى لك أفـــرخ | سنطير عنها وهي عندك ترزق
تهفو اليهم في التراب قلوبنا | وتكاد فيه بغير عرق تخفـــق
فاحفظ ودائعك التي اســتودعتها | أنت الوفي اذا أؤتمنت الأصدق .

شقة للايجار :

لم ينته بعد حديث الصور التي غابت عن القاهرة ·

ومن هذه الصور ، لافتة صغيرة كنت في طفولتي أراها كثيرا تتدلى من النوافذ والشرفات — في سائر البيوت تقريبا · هذه اللافتة تقـول (شقة للايجار) ·

كانت الشقق الخالية كثيرة في القاهرة ففي احصاء الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء عن التعداد العام للسكن والاسكان سنة ١٩٧٦ أن مصر كلها كانت مثلا في أوائل القرن العشرين عشرة ملايين وفي سنة ١٩٥٢ عشرين مليونا · طبعا قفز هذا الرقم سنة١٩٧٦ الى ١٠٤ر٦٢٦ر٣٦ أما التعداد الرسمى (١) بالقـاهرة سـنة ١٩٠٧ فكان ٠٠٠ر٦٦٠ فلو تضاعف هذا الرقم الى ثلاثة أمثاله في الخمسينات لما تجـاوز المليـون تذكروا هذا الرقم أعزائي القراء واذكروا أن تعداد القاهرة اليوم ١٢ مليونا لتعرفوا أن حبيبتنا القاهرة تحتمل الكثير واننا نرهقها من أمرها عسرا ·· حتى حين تمسها يد الاصلاح لنفسه يزيد عذابها سوءا لأنه يشكل عامل جذب اليها طالما الريف تعيسا مهملا متخلفا يزهد أهله فيه فيخلفونه الى القاهرة حيث العلاج وألوان التعـليم (وألوان المناعم أيضا ·· وتكون المحصلة الأخيرة ترييف القاهرة بدلا من تحضير الريف · ويتفاقم الوضع يوما بعد يوم طالما نجتزىء بالمسكنات في حل مشاكلنا لم نرتق بعد الى الدراسات الشاملة البعيدة المدى والرؤية الثابتة غير المتأثرة بتغير الوزارة ولعبة الكراسى الموسيقية ·

أعود الى اللافتة التي لا انساها « شقة للايجار » كانت جدتي تقلق اذا مر على هذه اللافتة أسبوعان فاذا استمرت الحال وامتد الاسـبوعان وصارا شهرين مثلا ، ضاقت بالا ؟ وهنا تسرع في اطلاق البخور في صلاة الجمعة في الشقة الخالية حتى يفك الله عقدتها وافهم عنها ، من حبى لها حتى ما يدور بخلدها ولو لم تقـله بالحروف · فاذا صادق أثناء لعبي أو صعودى ونزولى الذى لا يهدأ ان وجدت مستاجرا يسال عن الشقة ، عدوت مسرعة أنهب السلم نهبا لأزف اليها البشرى · واذا حدث وتم الاتفاق فانها تضم هذا الحادث وليد الصدفة البحتة والمرهون قبـلا بارادة الله قبل كل شيء ، الى يمن طالعى في نظرها ، وما لى فضل فيه ·

وما كان أسعدها عندما كبرت وزاد قسطى من التعليم ، أن أكتب لها عقود الايجار وايصالات السكان · وتبدأ تسألنى في كل كبيرة وصغيرة كأنى جهينة عندى الخبر اليقين ·

وهكذا عرفت صغيرة معنى المقولة (حسن في كل عين ما تود) أو معنى البيت :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

عفريت الليل ، الحمام :

تحدثت عن صورة اختفت من القاهرة هي حلم ذهبي الآن للكثيرين من الشباب أو العائدين من الخارج ، أو من تضيق بهم مساكنهم الحالية ، صورة شقة للايجار .

واليوم أتحدث عن صورة أخرى من الصور التي اختفت من القاهرة التي وعت نشأتي .. صورة طريفة .

أتحدث عن عفريت الليل :

كانت القاهرة اذا حل المساء يمر رجل نوبي نحيل الخطوة سريع العدو .. هذا الرجل عمله أن يضيء فوانيس الشوارع .. ولما كانت الفوانيس كثيرة فانه لكي يفرغ منها ، قبل أن يحل الليل كان بمجرد أن يفرغ من اضاءة فانوس ، يهرع الى الذي يليه ويضيئه . وتكرر العملية وأطفال الحي العفاريت يصيحون : عفريت الليل بسبع رجلين .

ومن الصور المصرية التي اختفت من القاهرة الحمام . لقد استرعت الحمامات العامة بالقاهرة أنظار الرحالة والسائحين شرقيين وغربيين . فعبد الظاهر في كتابه « قطف الأزهار » يذكر أن عدد الحمامات سنة ٦٧٥ ثمانون حماما والقاضي القضاعي يقول أنه كان في الفسطاط (١١٧٠) حماما وان كان على باشا مبارك في الخطط التوفيقية يرى في هذا الرقم مبالغة ، أما الفرنسيون في خططهم فقد سجلوا أن عدد الحمامات بالطبع في زمن الحملة تزيد على المائة . وقد أورد المؤرخ الفرنسي « أندريه ريمون » قائمة بحمامات القاهرة عند نهاية القرن الثامن عشر (١) فاذا بها قد بلغت سبعة وسبعين حماما .

وغير « أندريه » ، « جومار » و « بوتي » .. ومنا : على باشا مبارك .

كما التفت كتاب (وصف مصر) الى حمامات القاهرة .

وكانت طائفة « الحمامية » تستن لها عادات خاصة وهي (في تنظيمها الداخلي لا تختلف في شيء عن بقية الطوائف)

---

(١) مجموعة دراساته ضمها كتاب ترجمة الاستاذ زهير الشايب بعنوان : (فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية) .

هذه الأرقام على تفاوتها تكشف عدد الحمامات التي فقدناها اذا عرفنا انه لم يتبق في القاهرة ، ولها الا بضعة حمامات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة !!

كانت جدتي تحميني يوميا قبل النوم ونظريتها أنه بعد لعب النهار وشقاوة العيال تعطيني حماما ليزول عني التعب أي عناء الراحة .. وأنام في ثياب اخرى نظيفة أو كما تقول تشف وترف .

ولكني مع هذا الحمام اليومي ، كنت أفرح بيوم الحمام الخارجي اي الأسبوعي بينما يقول الدكتور احمد أمين أنه كان يكره الذهاب مع أبيه الى الحمام .

الحمام العام « كانت جدتي تسميه تاره « الحمام الأسبوعي » وطورا « الحمام التركي » لأنه يشمل التكييس وحمام البخار بالنسبة لهـــا على الأقل .

وكان الحمام العام مكانا واسعا كبيرا شرحا . وبالطبع كنت أجد فيه فرصة للقفز والوثب والفضول أيضا أو الجديد في باب الاستحمام.

ويبدو أنني كنت أبذل مجهودا كبيرا لأنني في كل مرة لا أكاد أصل الى البيت حتى أستغرق في نوم عميق .. فاذا استيقظت ، تهللت جدتي قائلة « نوم العافية » كما كانت تقول لي بعد الحمام « حمام العافية » .

ونسيت أن أقول أن الحمــام العام كان يتبعه مكان وقود لتسخين الماء يسمى المستوقد .. وكانت توضع فيه قدور الفول التي يأتي بهـــا اصحابها من الباعة للتدميس .

وقد اختفت الحمامات العامة بمستوقداتها ولكن الفول المدمس ظل آكلتنا الشعبية المفضلة حتى لنقول « من فاته الفول فاته الفطور » .

اقوال يومية :

ونحن المصريين بعاطفتنا الشديدة لنا عبارات دعائية كثيرة في حياتنا اليومية . فمن يشرب نقول له : هنيا ومن يأكل نقول : بالهنا والشفا ومن يستحم أو ينام نقول له حمام العافية ونوم العافية ومن يعطس نقول له رحمكم الله فيرد العاطس : غفر الله لي ولك ، ومن يحج نقول له «حج مبرور» والقادم نقول له : « حمد الله على السلامة » ومن يزور نقول له : « أهلا وسهلا » وبعد الزيارة نقول له : « آنست وشرفت » . وما يسوء نقول : « لا حول ولا قوة الا بالله » ، وما يسر نقول : « ما شاء الله » .. ومن

يقص يطلب فى البداية الصلاة على النبى .. ومن يغنى ينادى الليل فى عملية تجميع نفسه للغناء وتهيئة السامعين . كل شىء له عندنا تعليق حتى من يقضى حاجته نقول له : شفيتم .

وهى تعليقــات طريفة ولكنهــا تلفت نظر الغرباء خاصة الغربيين لا سيما حين تزيدها حبتين .

وقد اختفت صور كثيرة كما رأينا من القاهرة ولكن هذه التعليقات لم تختف بل تعيش فى مجتمعنا مرعية الجانب باعتبارها « الأصــول » كما تسميها من الشعب المصرى .

فلها على لسانه مذاق خاص ونكهة مميزة على طول عهــده بالحضارة والعراقة والأصالة وبعض هذه العبارات تتوسع فيها مثل قولنا للغائب بعد طول غياب : خطوة عزيزة .. زارنا النبى .

هذه الخطوة تتعدد بعد هذا فتصير خطوات أى نسير بها فى طريق طويل من الأقوال . فنكنى بالخطوة عن المسافة القصيرة كما تقول أغنية «بعيد عنك حياتى عذاب» بينى وبينك خطوتين تعبيرا عن القرب والوداد .. هذا بين المحبين من باب الكناية وهى على الحقيقة تعنى أيضا قصر المسافة وينضم اليها عبارة « فركة كعب » .

وينتقل التعبير الى ساحة الوجدان الدينى فنقول : (بين الخطــوة والخطوة يفعل الله ما يريد) ما تمشيش خطوة على خطوة الا باذن الله .

وينتقل التعبير أيضــا الى دنيا القصص والأساطير فتحدث الجدات جميعا عن **اهل الخطوة** فأبو خطوة الســان مبروك له كرامات يطــوى المسافات حتى ليصلى فرضا فى بلد ويصلى الفرض التالى فى بلد آخر .

وكلنا نفعل هذا الآن بل اننا ننتقل فى اليوم الواحد من قارة الى أخرى لا بلدة فحسب ولكن الانتقال السريع قبــل شــيوع اســـتعمال الطائرات كان من الكرامات .

وفى حياتنا يقابل هذه العبارات التى تقال من باب الأدب والذوق والواجب فى اصطناع الجدية يقابلها على الطرف الآخر عبارات فيهــا تفكه ودعابة بل سخرية تزيد الضحك ضحكا . والقاهريون بل أهل مصر جميعا مشهورون **بالقافية** .. تشيع فى كلامهم حتى أنهم فى الجد ينبهون عليه من باب الاحتراس فيقولون : بلا قافية يريدون أن المسألة ليست مزاحا بل جد فى جد .

وتشيع **القافية** حتى غدت لكل حرفة قافية فقافية للمزينين وقافية للنحو وقافية للأتراك وقافية للعب وقافية للساعة .

فيقول ظرفاء القاهرة في باب النحو :

راسك : اشمعنى
مبنية على الكسر
كيسك : اشمعنى
ممنوع من الصرف

ويقول الظرفاء فى باب الساعة :

عيشتك : اشمعنى
مافيهاش تقديم ·
الخيرات عن بيتكم :
ممسوحة ·
صنعتك : اشمعنى
رقاص

ومن قافية الهندسة :

آكثر نومك : اشمعنى
فى الزاوية

هذا فى العامية حتى تكلم المصريون العربية وأصبحت لغة الكتابة ولغة الحديث ، لعبوا فيها على الألفاظ · كانت العربية فى باب البديع على المشارقة مجتمعين تسعة وعشرون نوعا فوصلت بها مصر على يد أبى الاصبع الى بضعة وعشرين فوق المائة ! عشرين منها من ابتكارها وبعض ما ابتكرته مصر وأشاعته فى الأدب العربى شعره ونثره (فن التورية) ولا أحسب غير مصر قادرا على التورية واللعب باللفظ فى براعة وغندرة بكل هذا الظرف والرقة اللذين أشاعهما ابن نباتة فى بيتيه وقد أهدى اليه صديق تمرا رديئا ·

أهــديت تمرا بل نوى فقبلته — بيــد الوداد فما عليك عتــاب
واذا تباعدت الجســـوم فودنا — باق ونحن على النوى أحبــاب

كموج البحر الأشياء والناس فى القاهرة موجة غادية وموجة آتية والموجتان ليس بينهما من الرباط ما بين موج شاعرنا رامى الذى نرى فيه الموجة تجرى ورا الموجة عايزه تطولها تبوح لها ، وتحبها ، وتدور الأسرار ويطول السرار ·

أشياء كثيرة اختفت وأناس أيضا ·· الفران والعوالم وموكب الجهاز وليلة الحنة والحنطور والمحمل ورؤية رمضان ·

ابتلعت دوامة الجرى اللاهث ، الرومانسية وابتلعت كثافة السكان كل شيء أو أي شيء يقال وأطلت تفاهات كثيرة برأسها .. وشاعت أشياء غثة خاصة في الغناء الذي بدأ يرتد الى أغنيـة الستارة التي في ريح مؤلفي الكاسيتات .



لقد ذعرت يوما من مثل هذه الأغاني :

يا عم يا ورق ـ حطة يا بطة ـ متيجي يا عسل ـ يا واد يادندشة ـ الطشت وصاحبته .

هذه الأغاني وأمثالها تعلن عنها زليخة فون ولعاب فون ومهووس فون وكمون فون الخ ولم أكن أدرى أن مكاتب الصحة تضيف الى كل اسم كلمة فون ..

ان اغنية الستارة القديمة أثارت غضب رئيس الوزراء في ذلك الوقت محمد محمود باشا ، ابن الصعيد فانشأ قلم المطبوعات لمراقبـة الانحراف في التاليف .. ترى ماذا كان يفعل لو رأى وسمع هـذا الغثيان .

على أن ذلك العصر حفظ في المقـابل قصائد رفيعة غناها صالح عبد الحي وأم كلثوم وتالفت في القاهرة سنة ١٩٢٠ لجنة ترقية الأغاني القومية . وغنى سيد درويش :

مصر أولادها رجال	يفهموها وهي طايره
عطشـان يا صـبايا	دلوني ع السـبيل

من الصور التي اختفت من القاهرة بعد أن سفرت المرأة المصرية : البرقع .. ويقول الدكتور أحمد أمين انه كان يصنع بالمحلة الكبرى ضمن ما تصنعه هذه المدينة . وكان البرقع يغطي الوجه عداالعينين فيتيح فرصة أكبر لجمال عيون المصريات وكأنه اطار لها يركز عليها الاهتمام . وكان للبرقع قصبة تعلق في اعلاه يخرج منها قطان ينتهي عند شريط عريض طويل يلف حول الرأس عند أعلى الجبهة ثم يعقد من الخلف .

وكانت قصبة البرقع مجالا للتبـاهي فقصبة ذهب وقصبة فضـة وقصبة مطلية فقط بالذهب أو الفضة وقصبة نحاس .. وأخيرا قصبة من القصب أو الغاب لرقيقات الحال .. انها طبقية البراقع .

وقماش البرقع أيضا يتفاوت شكلا وموضوعا فيكون من الكريشيه

أو الحرير اسود أو أبيض ويكون مخرقا خروقا واسعة أو ضيقة في أشكال هندسية ويسمى (المشخلع) ٠

وتزين بعض النساء البراقع بقطع الذهب يسمى « غازى » أو « بندقى » وخاصة الفتيات ٠ وكانت الفتاة في الأحياء الشعبية المصرية بعد سن العاشرة تلبس البرقع الا اذا كانت تلميذة مثلى ٠ وتتفنن النساء في تحلية البراقع كما يتفنن في زينة ما تحتها من وجوه شربت من ماء النيل وسرت فيها عذوبته دما وروحا ٠

والحقيقة أن « عروسة البرقع » الأصل فيها الغاب ثم تاتى التلبيسة أى الغطاء الذهبى أو الفضى ٠ ومن هنا المثل المصرى الشعبى ٠ لبس البوصة تبقى عروسة ٠ وأصبح يطلق على كل من تجلوه الزينة فتنقله من حال الى حال ٠٠

واختفت مع البرقع التطريحة او الملاءة اللف كما اختفت الحبرة التركية وان عادت هذه الأيام تحت اسم آخر ٠

واختفى الخلخال وكان حلية أساسية بين بنات البلد حتى الموسرات كن يلبسنه من ذهب وأوبريت الليلة الكبيرة تنادى فيها احدى بنات البلد فى طعامه ياولاد الحلال بنت تايهة طول كده ٠٠ فى رجلها الشمال خلخال زى ده ٠٠ فرصة تكشف عن جمال ساقيها وخلخالها ألم اقل انها طعمة بنت البلد ؟ ٠

وبهذه المناسبة أقول ان لى صورة فى السنة الاولى من عمرى فى رجلى خلخال رفيع وفى معصمى اسورة وفى أذنى حلق لأجلس كاملة الهيئة على حجر جدتى ٠

طفلة بنت بلد ٠٠ لقد ولدت مصرية :

طاسة الخضة :

صورة أخرى من صور القاهرة فى طفولتى ٠٠ أتذكرون طاسة الخضة تلك الطاسة الصغيرة الجميلة ذات الحليات والكتابات ٠ وكان البيت المصرى يحرص عليها حتى اذا فزع طفل من أطفاله سقوه من طاسة الخضة فيهدأ وجيبه ويسكن نحيبه ويطمئن أهله عليه ٠٠ وبعض البيوت لا يملك طاسة الخضة وهنا يستعيرها اذا لزم الأمر أى فزع طفل فيه ٠٠ التخض ٠٠

وطبعا لا يفوت جدتى ان تتثنى من أجل طاسة الخضة وكعادتها فى المبالغة فى تدليلى كانت لا تكتفى بالماء تسقينيه من طاسة الخضة بل تضع

فيها تمرا أو تينا جافا ثم تبيتها في العراء أي على قاعدة النافذة وكانت عريضة في البناء وبها فتحات توضع فيها القلل لتبرد ٠

تبيت جدتي طاسة الخضة بتمرها أو تينها في العراء لينزل فيها ندى الفجر فاذا استيقظت في الصباح أكلتني ما بها عن آخره لتطمئن تماما أن الخضة ذهبت الى غير رجعة وأن الشر عني زال ٠

وما أكثر ما تكرر هذا الموال على أثر كل لفتة أو حركة ٠٠ كانت تقول عن اعتقاد ان نجمي خفيف ، وبناء عليه كل شيء يزعجني أي يخضني على حد تعبيرها ٠٠ على كل حال كنت سعيدة بهذا لما يعقبه من تين وتمر وأطايب أخرى ٠

وبمناسبة أكل الأطفال ، نعم أطفال القاهرة معي بعلي لوز وهو سكر معقود يصب في صوان صغيرة وينثر عليه اللوز وخاصة في الأعياد والمواسم ٠

ويتساءل أستاذنا الدكتور أحمد أمين عن سر هـذه التسمية ثم يعزوها أو يرجع على الأقل الى التشيع الذى كان سائدا في عهد الدولة الفاطمية ونسبتهم كل شيء الى علي ٠٠ فهذا النوع من الحلوى « على لوز » وعند المطر يقولون : يا فرج علي ٠٠ وعند الكرم والجود يقولون : عامل أبو علي ونحن الآن نقدم في الولائم نوعا فاخرا من الحلوى نسميه امتدادا لهذا : أم علي ٠

ولما كان الريف متواضعا قدم للاسم ، الزيت فغنى علي يا علي يابتاع الزيت ٠

الفران :

تحدثت عن أشياء وصور اختفت من القاهرة ٠ من هذه الصور ، (الفران) ٠ كانت صناعة الخبز جزءا من البيت المصرى في المدن والريف على السواء ٠ كان البيت يحتشد له بدءا من تنقية القمح وطحنه في القرية ، ونخل الدقيق مرة ومرتين في المدينة وقد عرفت طفولتي الطريقتين ٠

وسواء في القرية أو المدينة وهي هنا كبرى المدائن ٠٠ أي القاهرة كنت أتشبث بالاشتراك في سائر العمليات وخاصة في المراحل التي تدل على المهارة مثل « الخبيز » ٠٠ وارضاء لي كالعادة أوصت جدتي بصنع مطرحة صغيرة خفيفة لي وكانت أثناء قطع العجين قرصا على الألواح الخشبية

تقطع قطعة صغيرة أو قطعتين فتضع لى على المطرحة الصغيرة الخاصة بى قطعة العجين واقوم برحرحتها على المطرحة فى تقليد للكبار وكنت افعل هذا فى سعادة غامرة كأنى أدلل طفلاً ، أنا الطفلة فى ذلك الحين ثم أشب لألقى الرغيف فى الفرن .. فاذا نزل من المطرحة مستديرا سوى الأطراف فرحت جدتى وجعلت هذا موضوعا للحديث ! واذا تكوم منى الرغيف على بلاطة الفرن قالت فى حنان غامر : لا تخافى أنا آكله .. فاذا استمرت علامات الخجل أو الألم على وجهى ، أعطتنى قطعة أخرى من العجين لأحاول من جديد او فى الحقيقة لألعب من جديد فقد كانت العملية بالنسبة لى فى الحقيقة لعبة طريفة .

اختفى الآن الفران فى المدينة ، والفرن فى بيت القرية وغدونا جميعا نشترى العيش جيدا أو رديئا ، ولأنه جاهز ، لا نحس به ، زايلته مكانته القديمة فى النفس المصرية .. اننا الأمة الوحيدة التى تسمى الخبز « عيشا » وتكاد تقدسه حتى لتقسم به واذا وقعت كسرة على الأرض علمونا أن ننحنى على الأرض وننحنو على اللقمة ونرفعها الى شفاهنا ونقبلها ... ويزيد الكبار قولهم أستغفر الله العظيم . لقمة على الأرض تورث الاحساس بالذنب والآن ترمى البيوت المصرية أرغفة كاملة وعزيزة فى صناديق القمامة أو للدجاج بحجة الرداءة التى تزهد النفس معهــا فى آكله .. أو اكتفاء بالعيش الفينو الأبيض فى عمليــة اعجاب ســاذج بكل ما هو أبيض .. الرغيف الأبيض والرجـل الأبيض .. وليس هــذا بالشىء الهين .. انه تغير نمط حضارتنا وهنا مكمن الخطر .

تغير النمط الاستهلاكى ودلالته :

تحدثت عن الفران فى المدينة والفرن فى القرية والمسألة ليست مجرد صورة اختفت من حياتنا انها أبعــد كثيرا من هــذا .. ان تغير النمط الاستهلاكى يتبعه تغير النمط الحضارى وهنا كما قلت مكمن الخطر . وليس الخبز الى مثلا قريبا . هناك الملبس الذى تغير بدوره فبدأت تغمر الأسواق كميات رهيبة من الخيوط الصناعية وملابس مختلفة الأشــكال والأنواع والرسومات والألوان الزاهية للاستهواء فأصبحت الأسرة المصرية تلبس الألياف الصناعية بعد عزوف أوربا عنها الآن . اذ أثبتت الدراسة بالكليات الهندسية المتخصصة فى تكنولوجيا النسيج ، أخطارها ، فهى تفتك بجلد الانسان نتيجة الحرارة الاستاتيكية المتولدة منها على ســطح جسم الانسان .. نفعل هذا وعندنا القطن الذى يناسب جونا الحار لسرعة

امتصاصه للعرق وسرعة تبخيره الماء ، فضلا عن تحمله أثر ضوء الشمس المباشر فلا يتوبر أو يتساقط منه أجزاء ٠

ويكمن الخطر كما قلت أن التقليد في الوسائل نتيجته الحتمية تعميق التبعية للدول المصنعة ٠

ان التغير دوما جزء من بيئة وطبيعة الانسان ولكن مخاوفنا تتركز في نوعية هذا التغيير ٠٠ ومعدله وتأثيره في كل منحى من مناحي الحياة حتى القيم الشخصية والمستوى الخلقي بل المعتقدات مع بعد هذه عن التكنولوجيا التي تتردد كثيرا هذه الأيام ٠ وقد أدى التلاؤم الذي يقيمه تصور الحضارة الصناعية بين مستوى الحياة وبين التقدم التكنولوجي الى ما يسميه بعض الكتاب الاجتماعيين الغربيين أنفسهم ، بالغرور الحضاري سواء عند الخبراء الذين يعملون في المجتمعات النامية أو عند الدول المعينة نفسها ٠

وهكذا يتمزق الانسان بين حضارته وحضارة الآخرين ، وطبيعة الصراع بين الحضارات الغالبة والمغلوبة وتمزق انسان الدول النامية بين قيمه الموروثة والمحببة وبين مقتضيات ومتطلبات الحضارة الصناعية ، ظاهرة لحسنها ٠٠ وهكذا أصبحت قاهرة طفولتي ذات الطابع العريق ، برج بابل غدت أنماطا مختلفة وتيارات مختلفة وكلما كثرت الأنماط وتباعدت دلت على أن الأمة في دور الاعتمال في فترة قلق وحيرة نفسية وتظل هكذا الى أن (تتبوتق) لو جاز هذا التعبير ويسفر الانصهار عن شيء جديد ، والى أن يظهر هذا الجديد سنظل نعيش المتناقضات التي تحيط بنا ٠

أشرت ، قبلا الى برج بابل أى عن مجمع المتناقضات التي نراها في مدينتنا القاهرة ٠ ومعنى هذا أننا نراها بصورة أسوأ في مدننا الأخرى التي ليست عواصم ٠

في المسرح مثلا لو تأملت جمهوره خاصة مسرح الغناء تجده بين انسان يشرب الصمت ومأزوم يشرب الضجة وما أكثر غواة الضجة هؤلاء بيننا ومن ثم لا يستسيغ معظمنا الموسيقى السيمفونية ٠ ان سماعها فن وحده بما يحوطه من هدوء قار ، صمت متعمق ، وتذوق واع ، وتجاوب شاعر ، وحب شفاف ، واستغراق مشرئب ، وتفتح مشبوب ، وتقبل هفاف صاف ٠٠ وهي قدرات لا تعز علينا ولكننا لا نطيقها ولا نصبر عليها ٠

وما نشهده في الغناء ، نشهده في البناء فبيت أو فيلا على الطراز الايطالي ، وأخرى على الطراز العربي ، وثالثة على الطراز الانجليزي المنحدر

السقوف مع أن جونا المشمس المشرق قليل الأمطار . وهذا كله دلالته الوحيدة أن مفاهيمنا وأذواقنا ونوازعنا فى شبه دوامة لم تستقر بعد على حال .

الكرنفال :

التعليم .. الأدب .. الفن .. القيم لا تخلو هي الأخرى من هذا التباين ولا هي منه بمنجاة .. فالتعليم منه الديني الخالص ، ومنه المدني على أنواع ، ومنه الأجنبي مذاهب شتى .

والأدب منه ، لا يزال يتعلق بأهداب الماضي ، ومنه ما يجافي هذا الماضي جفاء يقطع الصلة .. ويوسع الهوة ومنه ربيب أوربا مادة وروحا ، اقتباسا أو محاكاة ، ومنه المحلي النابع من صميم واقعنا .. ألوان .

واذا كانت الموسيقى أقرب الفنون الى الأدب فانها فى مصر أصدق مثال على هذا القرب ، والتشابه . الموسيقى فى مصر منها ما لا يزال يتعلق بالموسيقى التركية ذات البشارف التى كانت عماد موسيقانا فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ومنها الذى يقتبس من أوربا من غير كلفة ، ومنها ما يستوحى بيئتنا : ريفنا . والحضر .

وتابى المرأة الا أن يكون لها دورها فى هذا الكرنفال فواحدة محجبة لا يظهر منها الا حدقتان تبرقان وأخرى سافرة الى حد متابعة بيوت الأزياء فى تقلباتها بين الطويل والقصير والضامر والمنفوش وثالثة تتعثر فى المسافة بين الطرفين .

وازاء هذا التباين ونتيجة له تتباين فى الحياة اليومية أساليب العيش وأساليب الحديث وأساليب التعبير عن ذواتنا حتى ليجمع البيت الواحد أنماطا من التعليم والأزياء والأذواق والعقليات وطرائق التفكير بل ولغة الحديث على ما بين أهل البيت من وشيجة القربى وصلة الرحم .

وينعكس هذا فى قصصنا : زقاق المدق ، « قنديل أم هاشم » وغيرهما .

ليس الا انتشار التعليم وازدهار الصناعة والوعى بتاريخنا وحضارتنا سبيلا الى الطابع القومى و « الشخصية المتميزة » ... شخصية مصر .

وما عدا هذا فهو مسخ . ومن المسخ ، نسخ قومية الطابع واعجمية الأسماء . عندما كنت طالبة يخطو صباى على دروب القاهرة ، كانت أسماء

المعالم رسمية وشعبية مصرية خالصة بل يحس الانسان مصريتها حتى فى أبعد الأشياء عن السـياسة أو الوطنيـة فتجد بقالة النيل الأزرق ونادى وادى النيل وأحسب أن هذا امتـداد للنهضة الاقتصـادية التى أرسى قواعدها ، طلعت حرب فبنك مصر يتوسط القاهرة وشركاته جميعا تستهل باسم مصر ، أولا ، ثم الصفة المشتركة ثانيـة فالشركة المصرية للملاحة وشركة مصر للطيران ، وشركة مصر للغزل والنسيج الخ ٠

ومصرية الأسماء أيضا امتداد للكشوف الأثرية التى تلت كنوز توت عنخ آمون ٠ والاعتزاز بالمصرية ومصرية الأسماء أيضا ، امتداد للثورات المصرية ضد المستعمر ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٣٦ ٠ وكانت الجامعة مركز اشعاع ، وكان الأزهر مصدر مقاومة تخرج منه المظاهرات ٠ كان للأزهر رأى ، وكان للجامعة رأى ، وكان للشباب فى كلا الحرمين رأى وكا نللشعب رأى هو الرأى العام ٠٠ وما أكثر ما اعتدل به الميزان واستقام المائل حتى القصة المصرية ولدت فى هذه البيئة وهذا الجو كما يقول محمود تيمور على يقظة الوعى بكلمة مصر وكان أبطالها وأحداثها وأسماؤها وموضوعاتها مصرية صميمة ٠٠ كان يستحيل فى هذا الجو المشحون بالقومية والوطنية أن يجرؤ أحد ولو كان أجنبيا أن يطلق الأسماء الغربية على كل صـغيرة وكبيرة فى حياتنا بل كان الأجانب يتوسلون للعيش بيننا بالتستر وراء الأسماء المصرية فاوروزدياك اسمه الذائع بيننا عمر أفندى ٠٠٠ ونماذج أخرى تخرج من الأسماء العربية القحة والأجنبية السافرة بالأسماء التاريخية خاصة الفرعونية فتوجت أعمالها بأسماء : ايزيس ـ أوزوريس ـ حوريس رمسيس ـ توت عنخ آمون ـ سيتى ـ أحمس ٠

عندما كان الانفتاح نابعا منا ، اقتصاديا ، على يد طلعت حرب ، وعلما على يد الجامعة المصرية ، ودينا على يد الأزهر ، وجذورا على يد المجمع اللغوى ، وتاريخا على يد التنقيب عن الآثار ، وهبات قومية على يد دعاة الاستقلال ٠٠ عندما كانت حياتنا جدا ترتفع فيها القيم ، جدت الأسماء ٠

لقد تحدثت فى هذا الموضوع فى الاذاعة أواخر سنة ١٩٨٣ ثم أثرت هذا الموضوع فى لجنة القاهرة بالمحافظة سنة ١٩٨٤ و سنة ١٩٨٥ فهل تستطيع محافظة القاهرة أن تخلصنا من الظاهرة المهينة التى تفشت وهى أعجمية الأسماء ؟ ماذا حدث للقاهرة ؟ ٠

أقول تفشت لأنى فى الريف أقرأ على الأكشاك الصغيرة والحوانيت المتواضعة مثل « كافتريا دالاس » ، « أوبرج ٠٠٠ » !!

ان القانون رقم ٦٢ الصادر فى ٣٠ أغسـطس عام ١٩٤٢ يقضى

بايجاب (استعمال اللغة العربية في علاقات الأفراد والهيئات بالحكومة ومصالحها وأن المادة الثانية معدلة بالقانون ١٣٢ لعام ١٩٤٦ تحتم أن يكتب باللغة العربية اللافتات التى تضعها الشركات والمحال التجارية أو الصناعية على واجهات محالها على أن ذلك لا يمنع من أن تكتب بلغة أخرى الى جانب اللغة العربية على ألا تكون أكبر حجما ولا أبرز • وبعد النص على العقوبة التي تتضمن السجن والغرامة تقول المادة [٣] فاذا وقعت الجريمة من احدى الشركات أو احد المحال التجارية أو الصناعية رفعت الدعوى العمومية على مدير الشركة أو صاحب المحل •]

وهكذا نرى مهمة محافظة القاهرة ليست عسيرة بمقتضى القانون وبحكم ما تعارف عليه الناس في بلادهم فلا تبدو القاهرة وحدها غريبة على أرضها •

الحـــدائق :

من الصور التى اختفت من القاهرة : الحدائق وأشهرها وأكبرها وأجملها **حديقة الأزبكية** التى أنشأها في عهد اسماعيل ونظمها ، مسيو باربيه مدير حدائق باريس • وحديقة الأزبكية هذه التى اغتالتها يد الجهل وكان لها تاريخ • كان بها ثمانمائة شجرة نادرة وكان بها كشك موسيقى تعزف فيه الموسيقات العسكرية « والمزيكة الميرى » كما كان أهلها يسمونها تعزف ادوار (يا طالع السعد) و (العفو لسيد الملاح) وغيرها •

كما تعزف المقطوعات الأوربية مما يفصل الحديث عنه أستاذنا الدكتور حسين فوزى فى كتابه الصغير الكبير (سندباد فى رحلة الحياة) •

وحديقة الأزبكية بعد هذا رئة القاهرة التى اغتالوا كل خضرة فيها وحولها • فاقتصوا جزءا من حديقة الحيوان لكلية الهندسة واجتثوا جزءا من حديقـــة النهر • لمسرح الجيب وادارة مرور الجزيرة ثم اقتطعوا جزءا كبيرا منها مؤخرا من أجل كوبرى أكتوبر •

وامتدت يد الاعتـــداء الى حدائق الزهرية فأقيمت فيها المنشـــآت وبعض الأندية الرياضية ومراكز الشباب كما استقطع الجانب الأكبر من حدائق القصور بالزمالك وتم تحويله الى أرض للمعارض •

أحسبكم تلتقون معى فى ضرورة الحدائق لمدينتنا القاهرة •• ان نصيب المدن الكبرى فى الدول المتقدمة من الخضرة ٦٪ من مساحة هـذه المدن أما القاهرة فنسبة الخضرة فيها أربعة من عشرة أى أقل من واحد••

اقل من نصف واحد !! هل يرضى محب للقاهرة ولمصر بما آلت اليـــه الخضرة فى عاصمتنا الكبرى بل فى عاصمة المجد والتاريخ ؟

جاء فى البحث الذى أعده وزير السياحة الأسبق الاستاذ عادل طاهر عن الحفاظ على البيئة الطبيعية وحماية التراث الحضارى أن المعدلات العالمية تحدد نصيب الفرد من المساحات الخضراء بمساحة تتراوح بين ١٢ ، ١٦ مترا مربعا ، وان كانت بعض الدول قد زاد نصيب الفرد فيها الى حوالى ٢٠ مترا مربعا ففى لندن يبلغ متوسط نصيب الفرد من المسطحات الخضراء ١٦ مترا ، وفى نيويورك ١٨ مترا أما فى القاهرة فلا يتعدى متوسط نصيب الفرد ٧٥ سنتيمترا على الرغم من أنها عاصمة مصر وأكبر مدن الشرق الأوسط وافريقيا ٠

وقد كشف التقرير عن واقعــة خطيرة وهى أن مصر التى تنفق فى سخاء على مظهريات موسمية ليست بها ميزانية للحدائق منذ ثمانية أعوام كما أن الخطة الخمسية (٧٨ ــ ١٩٨٢) لم تذكر الحــدائق بشىء من الجدية او التفصيل ٠

بقى أن نذكر نحن الحدائق وضرورتها لمدينتنا القاهرة ٠ ولم يقف الأمر عند الاعتداء على الحدائق العامة بل امتد الأمر الى الحدائق الخاصة ٠ ففى الزمالك البحرية والقبلية استشرت ظاهرة اقامة العمـــارات السكنية المنطلقة الارتفــاع على حدائق القصور بهذا الحى المرموق سابقا ! بل تم تحويل القصور نفسها الى مصالح حكومية ، وحدائقها الى مكاتب موظفين ٠ حتى القصور التاريخية كقصر لطف الله بحديقته الرائعــة ذات الجبلاية اقيم مكانها فندق لا يهمه التاريخ فى حساب الربح والتجارة ٠

ومثل هذا حدث فى جاردن سيتى حيث اندثرت القصور التاريخية وحدائقها ٠

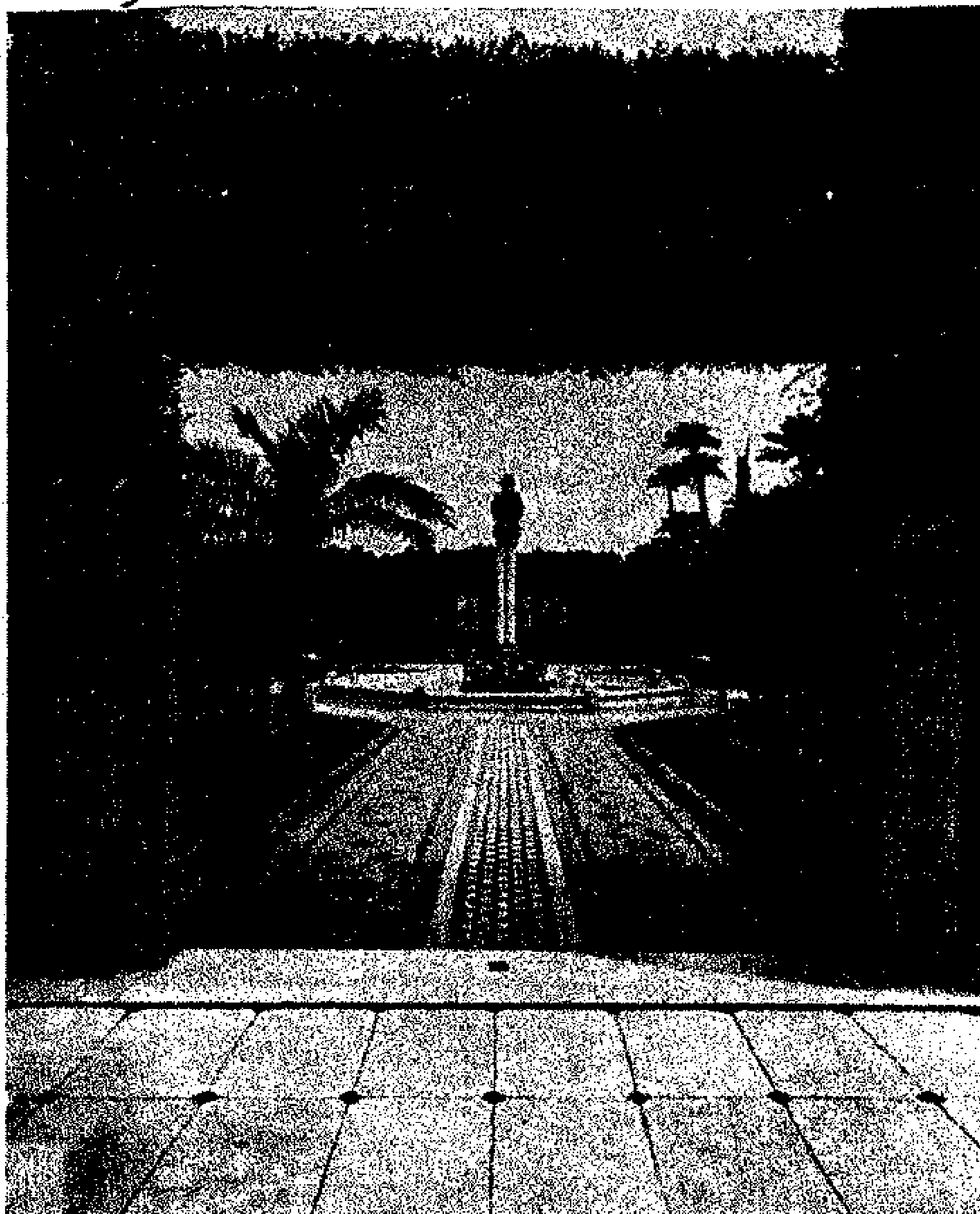
وتنعقد الاجتمـــاعات بمحافظة القــاهرة وتعرض التوصـــيات ثم تأخذ مكانها فى الأدراج حيث يخيم عليها النسيان أو التنــاسى وتزداد المآسى يوما بعد يوم وما حدث لجزيرة الزمالك حدث مثله لجزيرة الروضة التى حرمت من الحدائق التى غنيت بها سابقا ٠٠ وقام على اطلالها مبان ومسارح ودور لهو ومحطة مجارى أيضا ٠

حتى حدائق قصر المانسترلى فى جنوب الجزيرة التى كانت مع القصر تشرف على مقياس النيل وكانت أشجارها الباسقة والنادرة يزيد عمر بعضها على مائة عام ، اقتطع منها خمسة أفدنة ليقام عليها محطة مياه ٠

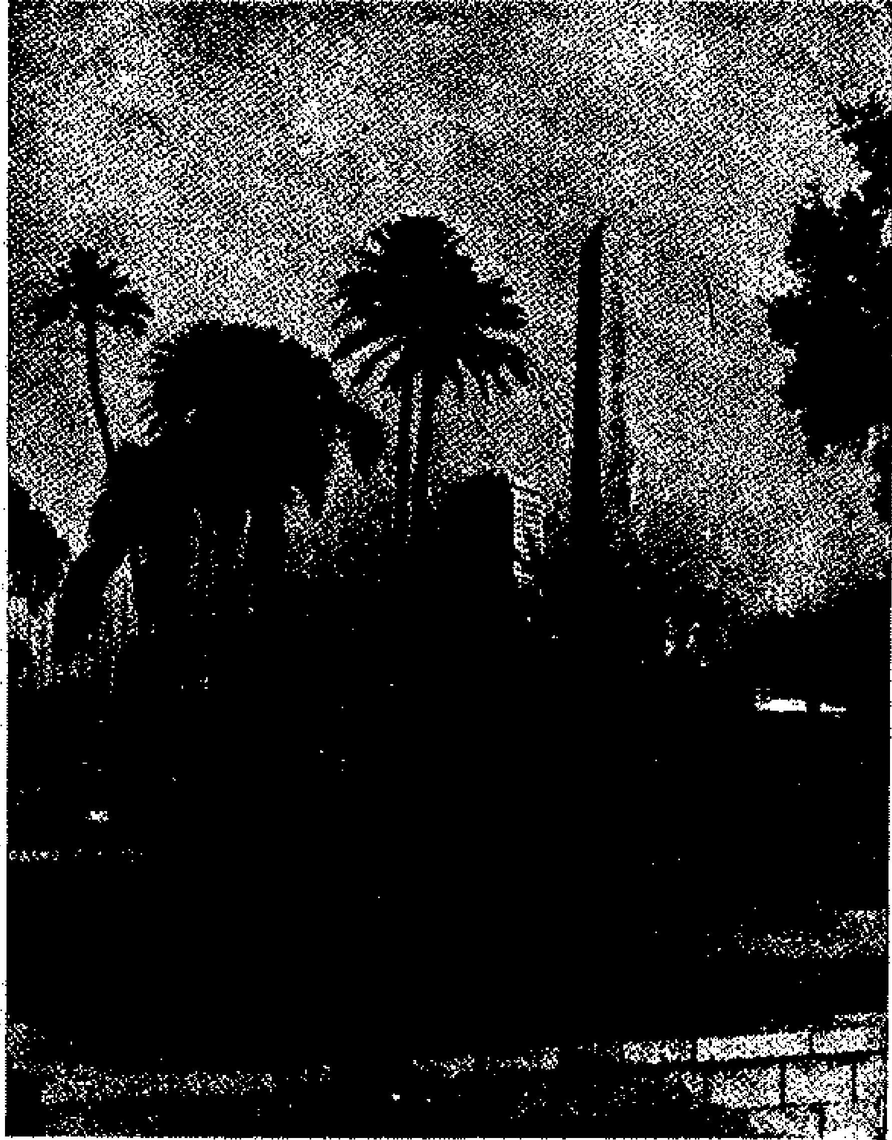
كان لنا الله ٠٠٠



حديقة الفردوس بالجزيرة ــ الزمالك



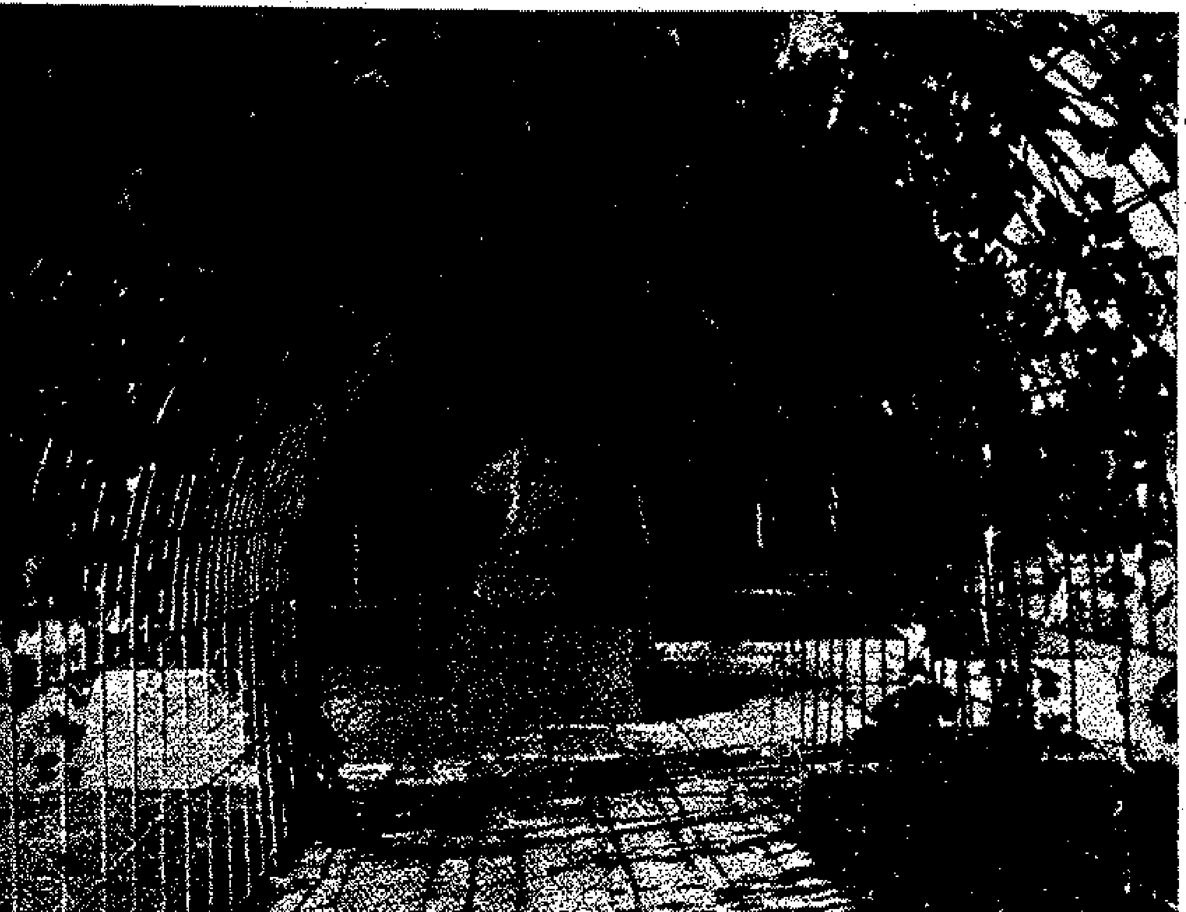
مدخل حديقة الفردوس الأندلسية



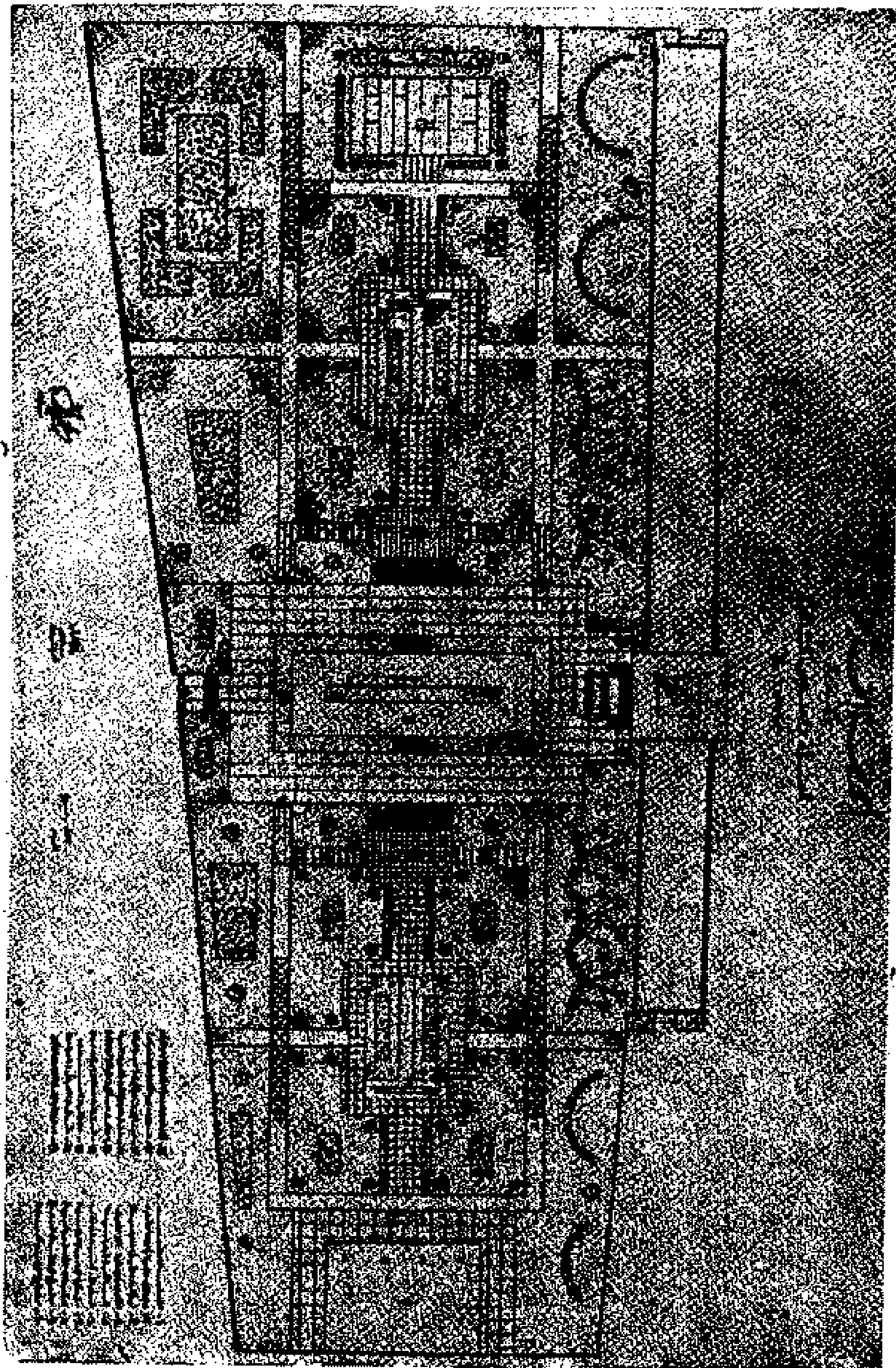
الحديقة الفرعونية بالجزيرة ـ الزمالك

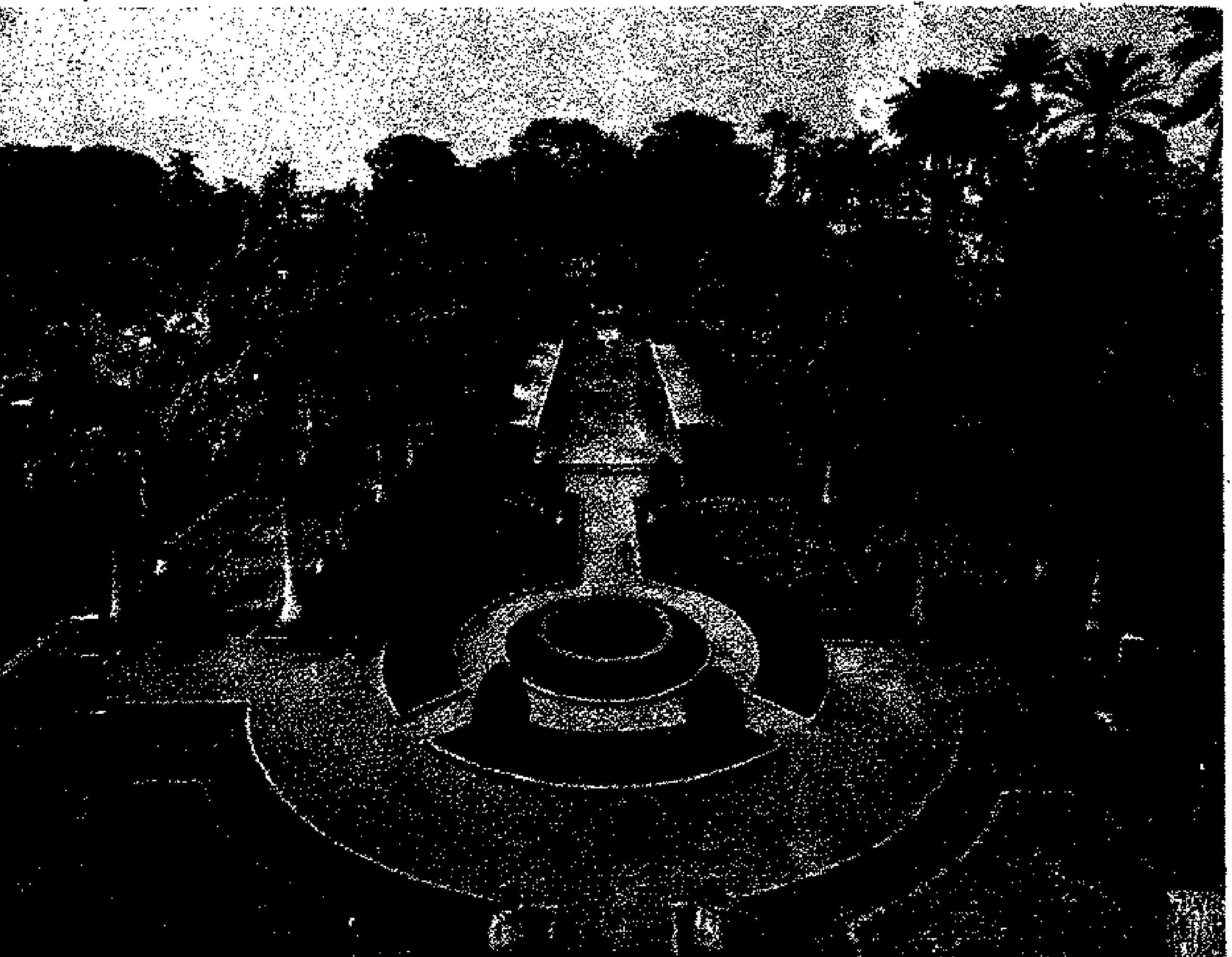
(اول حديقة فرعونية فى العالم)

« حديقة النهر سابقا »

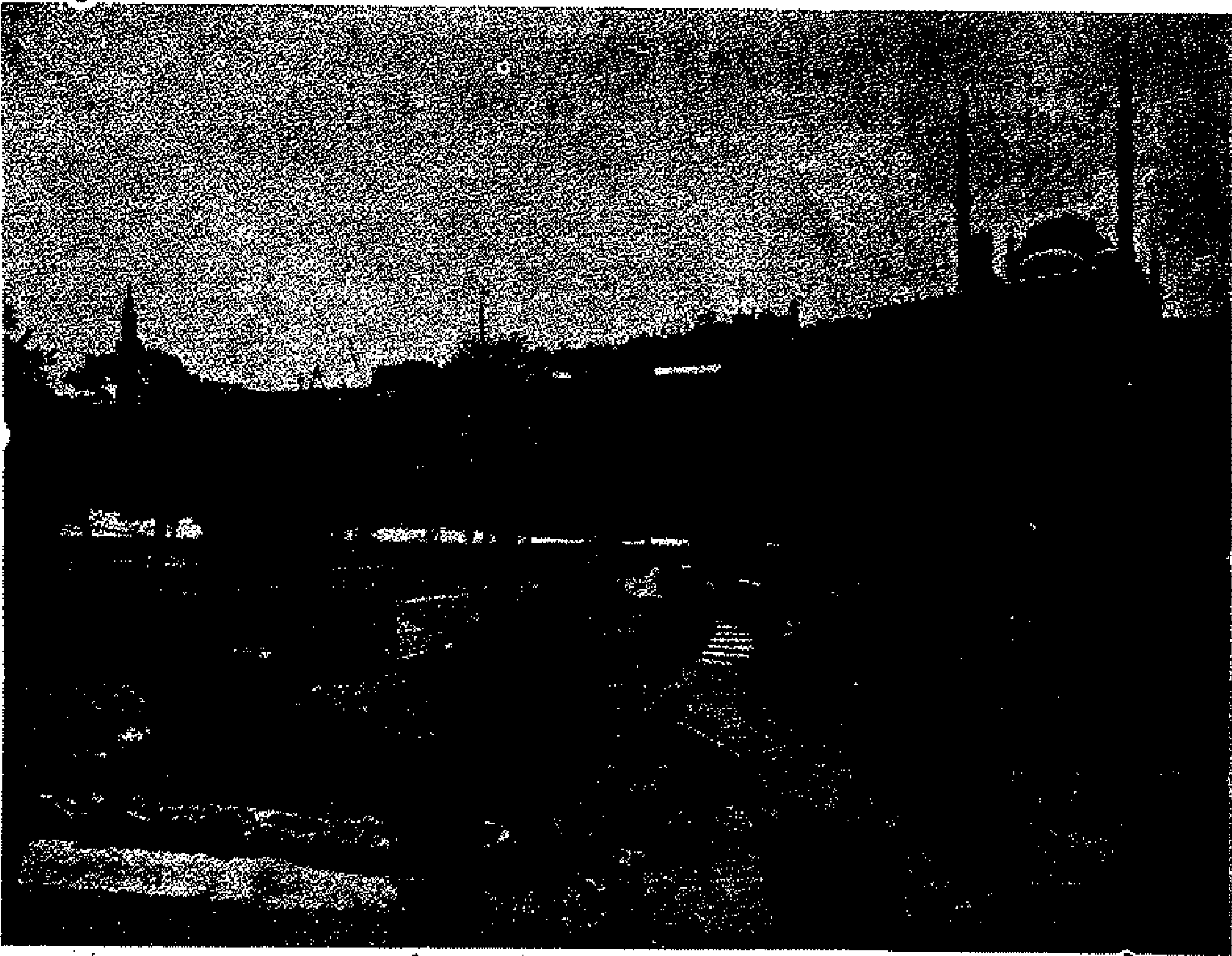


الأسود والأقواس فى المديقة الفرعونية





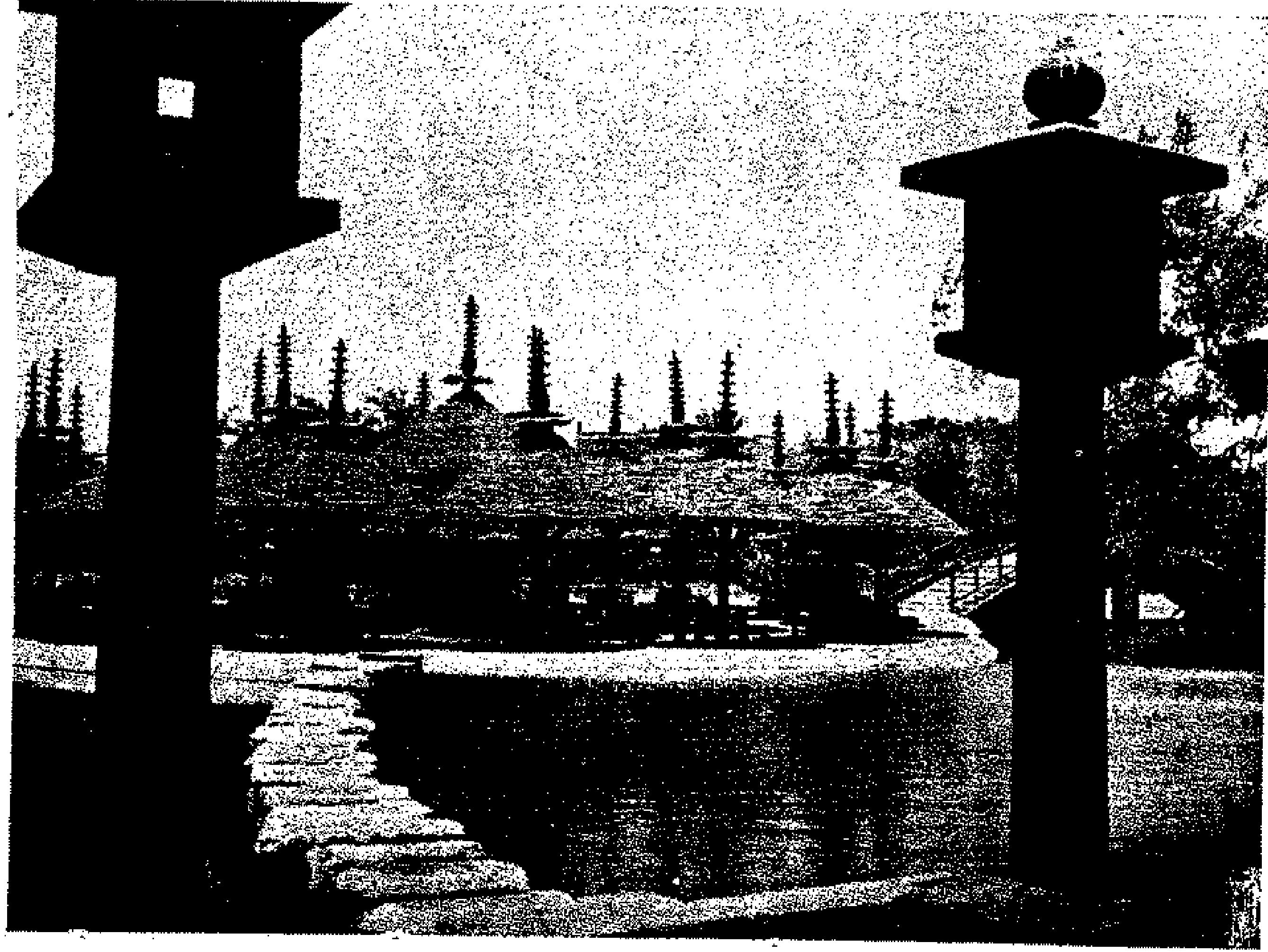
حديقـــة مور على الطراز الفرعونى



حديقـــة ميـــدان المنشية بالقلعــــة



حديقــة ميدان القــاهر



الحديقة اليابانية بحلوان

وكما حرمت جزيرة الروضة من الحدائق ، حرمت أيضا من النيل فان هذه العشوائيات الحجرية غدت تحجبه عن العين المصرية التى تدخره راحة .استرواحة كلما لفحها الهجير .

أما حدائق ميدان التحرير فقد تم تحويلها بحمد الله الى مواقف أتوبيسات .

وأخيرا وليس آخرا كما يبدو .. حديقة قصر محمد على بشبرا ومساحتها خمسون فدانا . وكانت تعتبر احدى روائع حدائق القاهرة بل من أندرها وأنفسها بما تضمه من ألوان الشجر والزهر كما كان يعد القصر نفسه من أندر القصور فى العالم والقصر وبحيرته الصناعية وحديقته الفنية .. كل هذا كان واليوم ماذا بقى له من هذا كله وماذا ضاع منه ؟ .

أما الأمير محمد على توفيق وكانت حدائق قصره بالمنيل ، عالمية الشهرة من جمال وروعة . وكان قد وقف عليها من أرضه ، لصيانتها .. هذه الحدائق يعبث بها نادى البحر الأبيض الذى يرأسه روتشيلد اليهودى ..

وحديقة السيدة زينب (الحوض المرصود) .

وحديقة ميدان الظاهر ، وغابات الدراسة ، وحديقة ضريح أحمد ماهر ، وحدائق القبة ، وحدائق المتحف الزراعى بالدقى .

وحدائق بولاق أى البحيرات الجميلة .

كتب لى الدكتور اسماعيل مصطفى اسماعيل المدير العام السابق للادارة العامة للحدائق والتشجير بمحافظة القاهرة أن حديقة الحرية كانت موضع زهو مما حدا بالحكومة سنة ١٩٦٢ أن تدعو الأمير سيهانوك الى زيارتها ، وشرب الشاى بها .

أين حديقة الحرية الآن ؟ وأين حديقة مور أو الحديقة الفرعونية ؟ والى متى يظل مبنى المقاولين العرب يشوه حديقة النهر ، المبنى الذى زعموا أنه مؤقت لادارة الكبارى للتحايل على اقتطاع الأرض ليجثموا عليها عاما بعد عام حتى تصير مع التقادم أمرا واقعا ، وملكا ضائعا على الدولة التى هى نحن دافعى الضرائب ؟ .

أين حدائق فم الخليج وحدائق حلوان والكابريتاج ؟

يقول الدكتور اسماعيل مصطفى اسماعيل وهو رجل مختص ، ان القاهرة تملك مشتل البراجل ومساحته سبعون فدانا بصوباته الزجاجية

والخشبية وورش الصيانة ··· كيف تتعامل معه ادارة الحدائق ؟ وما مدى استفادتها منه فى « تخضير » القاهرة ، و « تحضير » نواحيها ؟

هكذا كانت حدائق القاهرة التى اندثرت وشوهت واستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير هذه الحدائق التى وفرت لها القاهرة كل ما يعجب الجمال والفن والذوق الحضارى والمستوى الرفيع ·· ثم أتت عليها جميعا معاول الهدم وكان القاهرة نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ولكن لا ليست القاهرة ولكن أعداء الجمال والخضرة والنضرة أى أعداء القاهرة الزاهية الساحرة أو هكذا كانت حبيبتنا القاهرة ·

ان صورة القاهرة التى عرفتها طفولتى لا تمحى من وجدانى أبدا·· هذه الصورة الغالية دخلت حياتى ·· القاهرة فى حياتى حقيقة لا مجازا · ولهذا تؤرقنى القاهرة اليوم ويقلقنى عذابها ··

قرأت فى ٧٣/٧/٢٣ فى جريدة الأخبار أن مدينة نابولى تبكى حزنا على موت شجرة صنوبر عجوزا وهى تلك الشجرة التى تصور على جميع الصور الفوتوغرافية ، والزيتية لمدينة نابولى الايطالية خلال الثمانين عاما الماضية كشعار للمدينة ·

وقد نشرت الصحف الايطالية نبأ موت شجرة الصنوبر الشهيرة وكأنها تنعى شخصية وطنية شعبية ! لو بكينا على ما يستحق البكاء مما ضاع من القاهرة ومن مصر لأغرق الأرض سيل من الدموع أو جرى فيها نيلا مع النيل ·

حكى المقريزى فى كتابه (المواعظ والاعتبار) ان أمير مصر موسى بن عيسى خرج الى منطقة الرصد فالتفت الى من حوله مأخوذا وهو يقول :

أتتأملون الذى أرى ؟ قالوا وما الذى يرى الأمير ؟ قال : أرى ميدان رهان وجنان ونخل وبستان شجر ومنازل سكنى ونهرا عجاجا وأرض زرع ومرتع خيل وساحل بحر وصائد نهر وسهلا وجبلا فهذه ثمانية عشر منتزها فى أقل من ميل فى ميل ·

والآن القاهرة كلها ليس بها ثمانية عشر متنزها ·· أو نصف هذا العدد ·

الهدوء :

تحدثت طويلا عن صور اختفت من القاهرة التى درجت فيها

طفولتى وشب صباى ·· الى الآن صور مادية محسوسة ولكنى الآن أريد أن أتحدث عن أشياء معنوية اختفت من القاهرة ·· أشياء عزيزة منها :

الهدوء : تتحدث القاهرة الآن من خلال الميكروفون وتغنى من خلال الميكروفون وتعلن عن السلع من خلال الميكروفون حتى القرآن الكريم على وقاره يرتل من خلال الميكروفون وكأن كل شارع وكل بيت به محطة اذاعة محلية · وبعد ضوضاء الأصوات تأتى ضوضاء المركبات بأنواعها ،

وضوضاء الصور التى تزحم العين ·
وضوضاء الزحام الذى يكرب الأنفاس ·
وضوضاء الفوضى التى تؤلم الحساس ·
وضوضاء السلوك الذى يرهق الناس ·

ألوان من الضوضاء تعانى منها حبيبتنا القـــاهرة ·· فى اليابان يستعينون على رفع كفاءة أطفالها بعزف الموسيقى بل ثبت علميا ان النبات ينمو بالموسيقى ونحن نحاصر أطفالنا بالضوضاء فى الشارع وفى البيت وفى المدرسة وفى دور العبادة نفسها التى يجب بل من حقهـا أن يعمق فيها الصمت لنستمع الى كلمات الله ··· ان الصوت الخفيض لون من الدماثة وأدب السلوك ورهافة الأسلوب ·

يقول الله تعالى من سورة الحجرات : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » ويقول جل شأنه « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور · واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » لقمان ·

وحين وصفت مصر القديمة الاله قالت : (مفرح لمن يلوذ بالصمت) حتى فى الدعاء أوصى حكيمهم بالاقلال من الكلام فان « الله يعرف عنـا ما يريد » ·

فى بيان أصدره مجلس العموم البريطانى فى اغسطس سنة ١٩٤٧ أن (اذا عزلت الضوضاء عن غرف كتاب الآلة الكاتبة ، فان ذلك يقلل ٢٩٪ من الخطأ ويزيد ٣٧٪ من الانتاج · أما فى حالة موظفى المصالح فان هذا العزل يقلل ٣٧٪ من الخطأ ويزيد ٤٧٪ من الانتاج) ·

ولأمر ما خلد الأنبياء والمصلحون الى الخلاء ومجالى الطبيعة فى الغار أو الجبل ليستمعوا الى وحى السماء والى صوت النفس المنبعث من الأعماق الصافية فيهم ·

ليتنا ندرك أن صوت الصمت احيانا أروع وأوقع من صوت الكلام•

لقد عمل الدكتور على عبد الجليل راضى عدة احصائيات عن الضوضاء في أحياء القاهرة فخرج من النتيجة بصرخة الم تقول (واقاهرتاه). واقاهرتاه عنوان كتابه الذى شخص فيه أمراض القاهرة جميعا وقد قسم الضوضاء فى القاهرة أقساما أو الوانا :

فضوضاء يومية تعيشها جميعا على تفاوت بين الأحياء ولكننا لم يعد عندنا حي واحد ينعم بالهدوء حتى ولو كان مترفا •

وضوضاء موسمية كالتى تسبق عيد الأضحى وكورس الخراف على أسطح المنازل وعلى أبوابها •

وضوضاء عاطفية لو صح هذا التعبير كالتى تحدثها أبواق السيارات التى تحمل العرائس •

وضوضاء كروية كالتى يحدثها المشجعون فى أعقاب المباريات •

وضوضاء فئوية كالتى يحدثها الباعة المتجولون •

وقد ينام كل شيء في القاهرة ولو فى ساعة متأخرة من الليل ولكن الضوضاء فيها لا تنام • قد يخف معدلها فى بعض الساعات فقط ••

ليت خطباء المساجد يقولون ان من الدين توفير الراحة للمريض والطالب والنائم والمجهد •• ليتهم يقولون ان من الدين الدماثة بل هو فى جوهره حسن الخلق •• ومن الدماثة المصقولة : الهدوء •

لقد طالب المجلس الدولى للموسيقى سنة ١٩٦٩ فى ندوة اليونسكو بباريس أن لكل امرىء الحق فى الهدوء •

ويشير الدكتور راضى الى منظمات مهمتها محاربة الضوضاء • وقد قامت هذه المنظمات فى عدة دول سنت لها القوانين الرادعة مثل بريطانيا ـ سويسرا ـ أمريكا ـ ايطاليا •

مع أن ايطاليا كسائر دول حوض البحر الأبيض عالية الصوت • بل هناك الآن اتحاد دولى ضد الضوضاء تكون سنة ١٩٥٩ •

ان الذى يرفع صوته انما يغطى صخبا فى داخله •

ان النفس المطمئنة يأتى حديثها من قرار مكين •

والصوت الهادىء أكبر قدرة على الاقناع والامتاع وأعمق أثرا • وقد يبلغ الهمس بالخفوت ما لا يبلغه الضجيج والعجيج من مواطن الاصغاء •

رمضان فى القاهرة

تقاليده واستقباله :

تبدأ الاستعدادات لرمضان قبل موعده بتوفير متطلباته التقليدية · من طعام وشراب وترويح عقلي أيضا تضطلع به الاذاعة والتليفزيون جنبا الى جنب مع الغذاء العقلي والوجداني من برامج الدين والعلم والفن ·

أستطيع أن أقول ان رمضان بصورته الحالية رمضان حديث ولكن رمضان استقباله في طفولتي يجري على سنن آخر ·· صورة أخرى · كانت القاهرة ومدن الأقاليم وقراها تحتفل برؤية هلال رمضان فيخرج موكب من أرباب الحرف كل حرفة على عربة مزينة بآلات الحرفة ومعطياتهـــا وفوقها الحرفيون يمارسون حرفتهم ولـــكن بطريقة رمزية تحيـة منهم للاحتفال ، وتتفنن كل عربة في زينتها من اعتداد أصـــحابها بحرفتهم واعتزازهم في الوقت نفسه برمضان الذى يخرجون لتحيته · وتســـير في الموكب أرباب الطرق الصوفية يحمـــلون أعلامهم وشعاراتهم وفرق الجيش والشرطة والموسيقى وتطلق المدافع طلقاتها على صياح الأولاد على أثر كل طلقة (هيه) ويمشي هذا الموكب في الشـــوارع حتى يفضي الى المحافظة في القاهرة أو الى المديرية في عواصم الأقاليم أو الى بيت البيـــه المأمور في المدن حيث يوزع الشربات وتطلق الزغاريد على طريق الموكب حتى اذا حل المساء أضيئت المآذن جميعا احتفالا بشهر الصـــوم وهلت الفـــوانيس الصـــغيرة الجميلة الملونة وارتفعت أناشيد الأطفـــال ، وحوى يا وحوى رحت يا شعبان جيت يا رمضان ·· اياحة ·

بنت السلطان لابسة قفطان أحمر اياحة ·

ومرة أخضر ومرة أصفر وبعد كل لون ينشد الأطفال : اياحة ٠

ويهذه المناسبة وحوى تفسر بأنها كلمة مصرية قديمة من حوى يحوى أى عمل كما يعمل الحواه ٠٠ ربما ٠

كما كانت تتردد أغنية :

يا رمضان يا ورق أخضر	أيامك زى السكر
بتيجى لنـا بنفكر	ايه نعمل فيك يا رمضان
احنا الشبان البكر	دائما بتجينا معطر
ويتعزنا فيك كمان	يا رمضان قوينا
دا صيامك بيهدينا	وع المساجد بيودينا
ونصوم ونصلى فيك يا رمضان	يا رمضان يا ورد جميل
ويبنور فيك القناديل	ويتفرح كل الأطفال

وتذكرنى هذه الأغنية بأغنية قديمة موغلة فى القدم حين كان قدماؤنا يستقبلون النيل فى استهلال فيضانه بقولهم مما رواه ارمان فى كتابه (أدب مصر القديمة) ٠

« شباب رعاياك وأطفالك يهللون فرحا بمقدمك والرجال يحتفلون بك كملك راسخ القوانين عندما يوافى الوجه القبلى والوجه البحرى ٠٠ ويروى الناس من مائه ويقر الحزين ويبتهج كل قلب » ٠

ان مصر وادى النيل ووادى الدين ٠

أما الكبار فكانوا يحيسون رمضان بذكر وقراءة القرآن ٠ كانت البيوت الكبيرة « تسهر » أى يتفق كل منها مع أحد القراء المشهورين او « المصيتين » كما يقولون لاحياء ليالى رمضان بتلاوة آى الذكر الحكيم فى بيته وبين زواره ٠٠ أما البيوت الآن فتكتفى عادة بسماع القرآن من الاذاعة ولا يحرص على هذه العادة الا بعض العائلات الكبيرة فى الريف أو بيوتات البلاد العربية الذين يستقدمون كبار القراء المصريين لاحياء رمضان فى قصور الملوك والأمراء والوجهاء ٠

ويعتقد الناس فى رمضان أن الجن تحبس فيه ببركته ليكتمل خيره ٠ انهم يعتقدون أن رمضان ملك من الملائكة وانه اذا حل قيد العفاريت والجن فى قماقم من النحاس فيرتاح الناس منها طول الشهر ويتحركون فى أمان حتى فى الظلام ٠٠ وينطلق أهل القرى خاصة وينتقلون بين قراهم من قرية الى قرية للزيارة والمودة دون خوف فبركات رمضان تحبس

العفاريت التى يتوهمون انها تترصد بالسائر فى الأركان المهجورة على طول الطريق •

وتعدى هذه الأوهام الأطفال بالطبع فيهللون على سريتهم أو براحتهم فى رمضان وهم يهللون فرحين •

يا رمضان يا عود كبريت   يا مقيد كل العفاريت

وهم أنفسهم عفاريت مطلقة السراح •

وطالما رددت هذه الأغنية فى رمضان فقد كنت أخاف من الظلام وكان بيت جدتى كبيرا عالى السقوف كثير الدهاليز والمسروقة على السلم وكنت أثناء صعودى أحس دقات قلبى تسرع عند هذه المسروقة فأنهب السلالم عندها نهبا حتى أنجو من العفريت الذى كنت أتوهمه يسكن فى المسروقة . لهذا كان ينتهى يومى فى المساء فلا أنزل السلم الا بصحبة الكبار ... وكانت هى تخشى على من النزول فى المساء فتزكى فى نفسى دون أن تقصد هذا الوهم • أما فى رمضان فكانت تسمح لى وأسمح أنا لنفسى أن أمسك فانوسا وأشارك الأطفال فى فرحتهم وغنائهم • ما أجمل ليالى رمضان وما أجمل ليالى القاهرة •

هكذا كان يستقبل رمضان بأغانى الفرحة به فى غير تكلف ... أغان ليست مصنوعة بل تلقائية نابعة من الوجدان الشعبى على سجيته فهى ليس لها مؤلف واحد ، وبالطبع لا يعرف قائلها • وأصدق ما يكون الشعب المصرى حين يعبر عن احساسه بائنين : الدين والنيل ؛ وأصدق ما تكون المشاعر حين تنبع من القلب ابتهالات لله أو فيوضات من بحر النيل •

ورمضان يتميز فى كل شىء عن الشهور الأخرى : فى الطعام وتوقيته ونوعيته .. فى السحور .. فى الأذان .. فى النوافل • ففى الطعام ، يفضل كثيرون أن يتناولوا شرابا ساخنا أو شرابا محلى بالسكر وغالبا ما يكون قمر الدين وفاكهة طازجة أو مجففة ثم يؤدون صلاة المغرب وبعدها يتناولون فطور رمضان التقليدى الذى تتفنن فيه ربة الدار وتحتشد له من أول يوم .. ومهما تنوع وتعدد فان الفول المدمس مرموق فى موائد رمضان فى الفطور وهو طبق أساسى فى السحور •

ومن تقليدات رمضان **الكنافة والقطايف** •

وفى رمضان يفضل كثيرون تناول فطوره فى بيوتهم لحاجة الانسان الى الراحة بعد صيام طويل خاصة اذا جاء رمضان فى فصل الصيف •

ويحكى ادوارد لين الذى كتب كتابا ضخما عن عادات المصريين وتقاليدهم فى القرن التاسع عشر أن البيوت الموسرة كانت تضع كرسى صينية الطعام قبيل المغرب فى غرفة الاستقبال بمنازل الطبقتين العليا والوسطى وتوضع على الصينية ألوان من الفاكهة ·· ولكن الذى استوقفنى قوله انهم كانوا يضعون عدة ، قلل من الماء المحلى بالسكر ومعها كوبتان زيادة عدد الزائرين المدعوين ، ليشترك فى الشراب كل من يقدم على غير انتظار ·· الذوق مافاتش باب النصر ·

وتبدأ الزيارات بعد ساعتين على الأقل ·· وكم يحلو السهر فى رمضان والقاهرة معا ·· ان ليالى القاهرة على مدار العام فاتنة ساحرة فما بالها فى رمضان حيث يمتع الحديث ويشوق ، وتصفو النفوس وتروق ، ويتلألأ الليل بالنور والسبحات والقراءات والأذكار فى ناحية وقصص السماء فى ناحية أخرى · وتستروح القاهرة وتحلو الحلوة أكثر وتغدو بكل شيء لا تقاوم ·· انها كاسمها ، قاهرة ·

أما السحور فان أهم ما فى السحور « المسحراتى » والمسحراتى له فى حياتى دور ·· وان كان مسحراتى بلدتنا فى الصعيد لا مسحراتى القاهرة ·· كان المسحراتى فى طفولتى الباكرة فى مضاغة شيخ عذب الصوت حسن السمات على غير عادة المسحراتية فى الأرياف · حتى الطبلة كانت منه رقيقة شجية كأى صوت يسمع فى سكون الليل ·

كنت فى السابعة من عمرى او اقل قليلا ·· وكنت انتظر مروره للصوت الجميل الذى يقول فى مدح الرسول :

وأحسن منك لم تر قط عينى وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

ولم أكن فى البداية أفهم كل كلمة ولكن الوزن بموسيقاه والصوت بحلاه والروحانية السائدة فى المكان والزمان ·· كل هذا كان يشجعنى بل كثيرا ما كانت تدمع عيناى منه · وبعد أن يبتعد الشيخ أحمد المسحراتى ، أعود الى سريرى وأستأنف النوم ·· وقد كان أهلى يحسبون يقظتى فرحا بالسحور أو رغبة فيه أو حرصا على أطايبه خاصة الكنافة التى كنت أحبها ولا أزال ولكن هذا كله لم يكن السبب ·· لقد تعلمت من الشيخ أحمد على البعد وقع ايقاع التعبير الجميل والصوت الجميل ·

ومنذ ذلك اليوم عشت للكلمة وللجمال أنشده فى اللفظ والمعنى والصوت والصور والحياة والكون ، منذ ذلك اليوم دون أن اعرف

ارتبطت حيـــاتى بفن الأدب وفن الموسيقى ٠٠ لقـــد بدأت محاولاتى الأولى فى التعبير فى الثامنة من عمرى ٠ وبدأت أحفظ القرآن الكريم ٠ وعمق فى نفسى الاحساس بالكلمة وحاشيتها ٠٠ نعم ان الكلمة ملكة لها عرش وتاج ٠

أما فى القاهرة فالمسحراتى صورة أخرى مختلفة تماما ولكن لها طرافتها هى الأخرى ٠

ان المسحراتى يشكل ، لا أقول ظاهرة فى رمضان ، لكن يشكل على الأقل احساسا لطيفا فهو يطوف بالمنازل بيده طبلة يدق عليها ٠ أمام كل منزل ٠ لكل حى فى القاهرة ، مسحراتى خاص به وهذا أول فرق بين القاهرة ومدن الأقاليم وقراها . فهناك غالبا ما يكون المسحراتى واحدا أما القاهرة وهى بكل المقاييس « **الكبرى** » حتى قبل أن نطلق عليها نحن هذا الاسم ٠٠ لقد قرأته فى مجلة العمارة الانجليزية الصادرة فى أغسطس سنة ١٩٧٨ أن القاهرة فى القرن الرابع عشر الميلادى حين كان تعدادها نصف مليون كانت مساحتها أربعة أضعاف مساحة لندن وخمسة أضعاف مساحة باريس ٠

ان المسافرين الغربيين كانت تروعهم القـــاهرة باثنين : حجمها ونفاستها ٠ ماذا أقول يا سيدة المدائن ؟ أحسب أنها ولدت (القـــاهرة الكبرى) من أول يوم ولم لا ؟ ألست منف الجميلة والفســـطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ؟

أليست آلاف السنين لا ألفا واحدا كما يقول بعض منا ؟ أليست القاهرة عمرنا منذ كان لنا عمر ؟ ويمضى موكب الأجيال وكل جيـــل يودعها العمر وحصاد العمر ثم يمضى وتظل القاهرة ٠

المسحراتى :

ويأتى رمضان كل عام ويكر سريعا كما تقول جدتى وتعلل هـــذا بأن أيامه معدودة ٠٠ وتظل القاهرة ، كل عام تسمع أذنهـــا المسحراتى ونفرح نحن أطفال القاهرة به ، ولكن القاهرة تبتسم ٠ كم آلاف الرجال سحروها وبقيت هى الساحرة الوحيدة سحرت حتى الغرباء بل سحرت التاريخ الذى وقف عندها طويلا فكتب عنها الشرق والغرب ما لم يكتبه عن مدينة أخرى بنفس القدر والمقدار ٠

وبعض سحرها ما أفعله الآن ٠٠ أريد أن أتكلم عن المسحراتى فاذا بى أتكلم عن الساحرة ٠

في ليالي رمضان يباشر نفر من الرجال عملهم الموسمي أي تذكير الأهالي ، وما هم ناسون بالسحور • فالمسحراتي يطوف بيده طبلة يدق عليها أمام كل منزل دقة تقليدية معينة من الطريف أن ادوارد لين لم ينس أن يكتب لهذه الدقة نوتة ايقاع •

ويقول لا اله الا الله ثم يرد على نفسه قائلا محمد الهادي رسول الله •

ويسمي المسحراتي أصحاب الدور • طبعا يكون عرف جميع أسماء رجال الحي بطريقته الخاصة • يذكر المسحراتي اسم صاحب البيت قائلا أسعد الله لياليك فيفتح مغالق الاصغاء فليس أحب الى الانسان من سماع اسمه مقرونا بالتحية ومن الطريف أن المسحراتي يحيي أصحاب البيت من الذكور معددا أسماءهم ولكن النساء لا •• لعله احتشام يستثني منه الفتيات الصغيرات فانه يقول (أسعد الله ســـت العرايس فلانة وطبعا الطبلة شغالة بعد كل اسم •• بعد كل تحية وما أكثر تحيات المسحراتي المحفوظة عن ظهر قلب فهو يدعو للرجل بأن يقبل الله صلاته وصيامه ويدعو الله أن يحفظه ويبقيه لكل عام فاذا كان الرجل ذا حيثية فان المســحراتي لا يكتفي بالدعاء الموقع على الطبلة بل يضيف اليه أو يزيد عليه الحنيـة طويلة عريضة مسجوعة وقصة الاسراء والمعراج وقصص معجزات أخرى •• والطبلة أثناء هذا لا تلتقط أنفاسها بل تأخذ دورها بعد كل جملة بعد كل قافية هذا اذا كان ما يقوله مقفى كما يتوهم ولكنه في الحقيقة ينطبق عليه ما قاله الأستاذ العقـاد في الشـــعر الحر حين أطلق عليه جمـــلته الطريفة (ماذا عندهم من خوارق ومعان ولم يستوعبها الشعر المقفى متعللين بالشعب لا معنى ولا يحزنون •• قصـــارى الأمر أنهم ــ يقصد أدعياء الشعر ــ لا وزن لهم وهو شعب موزون) •

ومن طرائف المســـحراتي التي يرويهـــا الأثـرى المرحوم حسن عبد الوهاب في كتابه (رمضان) قول المسحراتي :

الخـــلاق

ومن طرائف المســحراتي التي يرويهـــا الأثرى المرحوم حســن عبد الوهاب في كتابه (رمضان) قول المسحراتي :

يا غفـــلان وحـــد ربك	وبالتقى عمـــر قلبـــك
ما يوم تقـــلق على رزقك	دا ربنـــا عالم بالحـــال
يارب قدرنا على الصـــوم	واحفظ ايماننا بين القـــوم
وارزقنا يارب باللحم المفروم	أحسن يارب ماليش أسنان

وقوله :

أنا المسحر جيت أطبل لكم — حافظ أساميكم صغير مع كبير
وفى كل ليلة لى على كل بيت — اللى من الذمة خرج للفقـــير
ولى عدية عندكم كل عيد — الكمك وكفوف الشريك والفطير
آجى أصحيكم وانتم نيام — وقت السحر عن كل خير غافلين

أحياكم المولى

أنا المسحر جيت معى طبـلتى — وأحكى حكاية الفار وأقول قصته
وأحكى حكاية الفار وأقول ما جرى — بينه وبين القط يوم وقعتـــه
القار جعل بيت الفقير مسكنه — وكل يوم يسطى على مشـــنته
وحرمه رغيف يخبزه ابن الحرام — وآكل الحرام خلاه ملظلظ ســـمين

ويظل يقص حكاية القط مع الفار الى ان وقع الفار بين مخالبه ٠ ثم يختتم بقوله :

آدى جزاء من غرته شـــهوته — حتى هوت به فى مهاوى الهوان
وادى جزاء من راح بنفســـه الى — موته وخد له من عدوه الأمان
وادى جزاء من كان يصدق جميع — ما يسمعه ويميـــل لمدح اللسان
واختم حكايتى بالصـــلاة والسلام — على ابن رامه خاتم المرسلين
أحياكم المولى الى كل عــــام — وكل عام وأنتم بخير طيبين

كان المسحراتى لا يذكر النساء والبنات فى موال كل ليلة الا أن جدتى كانت تصر على أن يذكر اسمى ويدعو لى بل يطيل فى الدعاء ٠٠ كانت ترانى فى طفولتى قيمـــة كبيرة فى نظرها ولا أدري كيف وكانت لا تتحرج أن تسوى بينى وبين الكبار وأنا طفلة الهو ٠٠ بل تفرض هذا على من يخيط بها أو يتعامل معها حتى فى الترام أو الأتوبيس كانت تصر على أن آخذ كرسيا وعندما يبتسم الكمسرى تقول له وكأنها تفحمه اقطع لها تذكرة ٠ والذى يحدث اننى كنت لا أبان من الكرسى ٠ ولكنى بحكم التذكرة أقفز وأتقافز من الفرحة وأطل من النافذة وأحيانا أصف ما أرى وهكذا عرف أتوبيس القاهرة ، مبكرا مذيعة صغيرة ٠ وتسمع جدتى وهى طروب لكل كلمة حتى ولو كانت غير ذات معنى شأن الأطفال ٠

وبالطبع كنت أفرح بهـــذه العناية التى تخصنى بهـــا وأفرح أكثر بترديد المسحراتى اسمى دون سائر أطفال الشارع وأقبلها تارة وأدعو

لها أنا وأمطرها بالأسئلة حينا وأثناء هذا تغمرلي هي بأطايب رمضـان من الطعام ٠

وكم لأهل القاهرة من قصص مع المسحراتي ٠ يروى ادوارد لين الذي عاش في القاهرة في القرن التاسع عشر وكتب عنها كتابه الكبير ٠
The Manners and Customs of The Modern Egyptians.

أى أساليب وعادات المصريين المحدثين ٠ يحكي أن نساء الطبقـة المتوسطة أى بنت البلد ٠ كانت النساء يعمدن الى وضع قطعة فضية من النقود فى ورقة تلقى بها احداهن من النافذة الى المسحراتى ولما كان الوقت ليلا والمسحراتى بالطبع لم يوهب عيون زرقاء اليمامة أو ليس صقرا حاد البصر فان السيدة تشعل الورقة ليرى المسحراتى مكان سقوطها فيستدل عليها وينقض عليها ويفضها ويأخذ القطعة الفضية يدسها فى جيبه ويرفع صوته بقراءة الفاتحة لصاحبتها ٠ وقد يكون منشرحا فيروى قصة قصيرة تمتع النساء ٠

ما أطعم بنت البلد وما أحفل رمضان القاهرة بالطرائف ٠

المسحراتى بعض زبائنه يطلبون اليه أن يمر قبيل الامسـاك أى قبيل الفجر ليذكرهم ان كان فاتهم الطعام فيتداركون ما فات وفى هذه الحالة يقرع المسحراتى على الطالب البـاب ويأخذ فى النداء عليه حتى يجاب ٠٠ أما الضجة التى تحدث من قرع الأبواب فليسست واردة فى ذهن المسحراتى أو من يطلب اليه هذا الفاصل من العزف المنفرد ٠

وعذر بعض الناس أن السحور عندهم يشكل الوجبة الرئيسية اذ يفضلون فى الفطور غذاء خفيفا ويركزون على السحور ليقيهم النهار كله ٠ على كل حال الناس فى رمضان كل شيء تقبله : الضجة والصمت فرمضان كما تقول جدتى ضيف عزيز من السنة للسنة والضيف مكروم ٠

أنتقل الآن الى الأذان ٠ وهو من الأشياء الجميلة فى رمضان ٠ ففى رمضان يؤذن المؤذنون أذانا خاصا به قبـل منتصف الليل يسمى آذان « الأبرار » وهذا الأذان قبل منتصف الليل بساعة وأحيانا بساعة ونصف أو بنصف ساعة فقط اذا كان الوقت صيفا الليل فيه قصير ٠

ويتكون هـــذا الآذان من الآيات الكريمة التى تضـــمها سورة : الانسان « ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجهـا كافورا ، عينـا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ٠ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان

شره مستطيرا • ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا • انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » •

هذا آذان ما قبل منتصف الليل اما الآذان الآخر الخاص برمضان فهو آذان بعد منتصف الليل بنصف ساعة ويسمى (السلام) وهو المجموعة من الصلوات على الرسول ، تشبه تلك التى تقرأ قبل صلاة الجمعة ، ولكنها ليست هى بالطبع •

كانت القاهرة تتمتع بهذه التقليديات والروحانيات يوم كانت المآذن تعلو على المنازل تتلألأ بالنور ، وينهل منها الآيات كالنور فترتاح من استرواح وطمأنينة •• ولكن القاهرة اليوم ، ترتفع فيها العمارات الحديثة ، وتمعن فى الارتقاء حتى تدانى السحاب •• ولم تعد العين تميز المئذنة من البيوت الا فى الأحياء الشعبية •• لا أريد أن أدخل الآن فى عشوائية البناء والتخطيط نحن فى رمضان •

وفى معرض الحديث عن الآذان أذكر آذان الفجر يؤذن قبل موعده بوقت كاف لتنبيه الغافل عن السحور ، رحمة وحنانا •• وهناك آذان آخر قبل الامساك • ولأمر ما •• تبدأ الفاتحة أم الكتاب ومثلها البسملة بصفة الرحمن الرحيم من دون سائر صفاته عز وجل وهى كثيرة لا يحصيها عد أو وصف وان قالوا تسعة وتسعين اسما صفة • انه تأكيد للرحمة وكان من الممكن أن يقول العظيم مثلا أو الجبار ولكنه اختار الرحمة دون سائر أسمائه الحسنى •

وقد تأدبت القاهرة بأدب القرآن واستنارت القاهرة المتحضرة الحاضرة سيرته واشتارت جناه فالأسماء فيها عبد الرحمن • عبد الرحيم •• عبد الودود ــ عبدالشكور ــ عبدالعليم •• عبدالسميع • عبد الغفار حين تسمى بلاد أخرى عبد الجبار •• عبد القهار •• بلاد كانت صاحبة حضارة أيضا ولكن الرحمة والسماحة أفق رفيع •• قد تتسم بالجهامة حضارة وقد تتسم حضارة أخرى بالسماحة والدماثة من رحمة تظلل الانسان والحياة • فاذا بها مستقرة وقريرة • وهكذا كانت حضارة مصر قبل الأديان • ولهذا عانقت مصدر الأديان واعتنقتها فى نقاء واخلاص بلغ حد الفداء فى موقعة الشهداء حين المسيحية وفى مواقع الصوارى وحطين وعين جالوت فى الاسلام فوق ما أهدته مصر فى السلم وأسدته فى العلم وأضفته فى الفن • مرة أخرى أقول انها وادى النيل ووادى الدين معا •

المرق والحلق والخلق :

كانت جدتي كسائر سيدات جيلها تقسم رمضان أقساما ثلاثة : فتقول انه عشرة مرق وعشرة حلق وعشرة خلق وأسألها طفلة في فضول ماذا تعني ؟ فتقول ان الناس في الأيام الأولى في رمضان يعتنون بالطعام تحية وحفاوة برمضان حتى اذا ألفوا المواعيد الجديدة وأصبحت عادية ، بدأ الناس يعدون العدة للكعك ، فاذا فرغوا منه في أواخر الثلث الثاني من رمضان ، بدأوا يعدون العدة للعيد فيشترون الملابس الجديدة لأولاد الأسرة وهذا معنى :

عشرة مرق وعشرة حلق وعشرة خلق أي قماش وملابس ٠

لقد اعتنقت مصر الاسلام ولكنها فيه تمارس عاداتها القديمة حتى ولو لم يدر بعض النساس فعشرة المرق تذكرني بحاملات القرابين من خير الأرض الطيبة الذى تحسر عليه اليهود بعد الخروج فقالوا كما جاء في القرآن الكريم « لن نصبر على طعام وحد فادع ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفولها وعدسها وبصلها » ٠

أما عشرة الحلق فهو كعك العيد الذى تحتشد له البيوت المصرية دون سائر البلاد العربية بل ان المصريين يصرون على نقش الكعك بطريقة خاصة بمنقاش الكعك نقوشا خطوطا دائرية على شكل قرص الشمس هو النقش نفسه الذى صنعته ايزيس لابنها حوريس ٠٠ وأذكر في طفولتي أن والدى جاء جدتي بقالبين مختلفى النقش توضع عجينة الكعكة في القالب وتضغط على موضع فيه فتخرج الكحكة منقوشة جاهزة وبسرعة وكان يظن أنه يسهل مهمتها وانها ستسر بالهدية ولكنها أخذت القالبين ودعت له ولأولاده اخوتي وأنا ثم ركنت القالبين وأخذت تنقش بالمنقاش ٠ تصنع قرص الشمس المعهود ٠

وكما كانت تزكى كل عمل أو قول لى ، أيدت بالطبع رأيها في المنقاش وان كان السبب الدفين عندى أنها تشركني في هذه العملية المسلية فتعطيني الكعكة بعد تسويتها بيدها وباليد الأخرى تعطيني منقاشا وتدعني أنقش به على العجينة ٠ وكم كانت هذه العملية تمتعني انها لعبة أخرى في نظرى وأرسم رسوما مضحكة أحيانا ولكنها تتقبلها في غبطة بل تمدحها فأسوق فيها ٠

ما أكرم رمضان وما أطيب جدتي ٠

ويقـال ان أكثر العهود عناية بالكعك ، الدولة الاخشـيدية التي أثر عن وزيرها أبي بكر محمد بن علي المادرائي أنه عمـل كعكا حشـاه بالدنانير الذهبية أطلقوا عليه وقتئذ اسم (افطن له) أي حذر ... فذر فكان الجنيه . وهكذا كما يبـدو سبقتنا الدولة الاخشـيدية الى فوازير رمضان .

وكان للدولة الفاطمية طباخون لهم شهرة فى الكعك ورثتهم الدولة الأيوبية . ومن هؤلاء طباخة كانت تتفنن فيه حتى أطلق على كعكها (كعك حافظة) .

لقد تحدثت عن القوالب المنقوشة التي قدمهـا والدى الى جـدتى تيسيرا لها فى عمل الكعك وكيف ركنتها واصرت على المنقاش ولكن هذه القوالب المنقوشة والمكتوبة ترجع هي الأخرى الى عهد بعيد . ففي متحف الفن الاسلامى قوالب منها يحتفظ بها المتحف . ومن الطريف أنه يكتب على بعضها كل هنيئا . كل واشكر . بالشكر تدوم النعم .

ونحن المصريين نتعاجب بالكعك ونتهادى به سواء فى القاهرة أو الريف ، وطالما حملتنى جدتى أطباقا الى جيرانها وأحبائها وتحفظنى السلام منها اليهم الذى كنت أبلغه مقرونا بكلمة (نينا تقول لك كل سنة وانتى طيبة) كما كان جيرانها يرسلون اليها بدورهم أطباقا محملة بالكعك فى عملية تبادل وتواد وكذلك يفعل أهل مصر والقاهرة وقبل زمن جـدتى بزمان فان محمد ابن السعودى الخياط وكان يسكن درب الأتراك بجوار الأزهر فى القرن الثامن الهجرى أو الرابع عشر الميلادى يقول انه جاءه فى عيد الفطر من الجيران أطباق كعك على عادة أهـل مصر ملأ بهـا زيرا كبيرا .

ووالد جـدتى نص فى وقفيتـه على توزيع الكعـك والفطـائر فى العيد على الفقراء والأيتام . وكانت حريصة على تنفيذ هذه الوصية حتى أنها كانت تصنع حلوى وكعك البيت فى يوم وفطائر وكعك الوقفة فى يوم آخر تمسكا بحرفية الوقفية .

وكثير من الوقفيات الأخرى كانت تنص على توزيع الكعك والفطائر ومنها وقفية الأميرة تتر الحجازية والتى نصت فيها على توزيع الكعك الناعم والخشن على موظفى مدرستها التى أنشأتها سنة ٧٤٨هـ ــ ١٣٤٨م .

كانت الأسر المصرية تستبقى فى الآخر قطعة من العجين فتعمـل لأطفالها كعكا خاصا لكل بنت عروسة ولكل ولد حصان . وكانت جدتى

تعمل عرائس من الكعك لا عروسا واحدة وأطلب منهـــا حصانا أيضا فلا تمانع بل تلبى فى سرور • وهكذا أظفر فى العيد بما لم يظفر به طفل أو طفلة • ويبتسم الكبار حين يلمحون حرصى على تجنب الدسم من الطعام لأنهم يعرفون القصة •• وأنى شبعت طفلة الى ما فوق الامتلاء من يدى حبيبتى جدتى •

ويبدو أن قولنا « رمضان كريم » حقيقة ماثلة • فهو كريم جدا فى الليل على الأقل اذ أن قومنا يتهـادون أيضا بالقطايف والكنافة فضـــلا عن الكعك •

القطايف :

وكما تعودت الأسر المصرية أن تهدى الكعك ، كانت تهدى القطايف • ومن طرائف الشعر فى هذا الباب ، قول ابن نباتة المصرى :

أقول وقد جاء الغلام بصـــحنه
عقيب طعام الفطر يا غاية المنى
بعيشـــك قل لى جاء صحن قطايف
وبح باسم من أهوى ودعنى من الكنا

ويقول آخر : (المعلم المرصص)

وحقك ما أوليتنى من قطايف
ألذ وأحلى من وصال القطايف
وقد ضمنت مثـل العتاب حلاوة
ألم ترها ملفـــوفة كالصحائف

ويقول الشاعر المصرى أبو الحسن الجزار فى خفة دم مصرية :

سقى الله أكناف الكنـــافة بالقطر
وجاد عليها سكر دائم الدر
وتبـــا لأوقات المخـــلل انهـــا
تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

ويقول ابن نباته :

وعى الله نعماك التى من أقلها قطائف من قطر النبات لها قطر
أمد لها كفى فأهتز فرحـــة كما انتفض العصفور بلله القطر

ويقول سعد الدين بن عربى :

وقطايف مقرونة بكنـــافة من فوقهن الســـكر المذرور
هاتيك تطربنى بنظم رائق ويروقنى من هذه المنثور

ويقول أبو الحسن الجزار مرة أخرى :

تالله ما لثـم المراشــف كـلا ولا ضـم المعاطف
بالذ وقعـــا فى حشـــا ى من الكنـافة والقطائف

ومن الطريف أن عالمنا جلال الدين السيوطى له رسالة طريفة عنوانها (منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف) أنه حدث فى القرن العاشر الهجرى أن ارتفعت أسعار الحلوى فرفع المصريون شكاة منظومة الى المحتسب وكان النثر لا يؤدى ! ولكنها الفكاهة المصرية التقليدية • ماذا تقول هـــذه الشكوى الظريفة ؟ •

لقد جاد بالبركات فضـــل زماننـــا بانـــواع حلوى نشرها يتضـــوع
حكتها شـــفاه الغانيات حـــلاوة ألم ترنى من طعمها لست أشبع
فلا عيب فيهـــا غير أن محبها يبـــدد فيها ماله ويضـــيع
فكم ست حسن مع أصابع زينب بهـــا كل ما تهـــوى النفوس مجمع
وكم كعكة تحكى أساور فضة وكم عقدة حلت بها البسط أجمع
وكم قد حلا فى مصر من قاهرية كذاك المشـــبك وصـــله ليس يقطع
وفى ثوبه المنفوش جاء برونق فيا حبذا أنواره حين تسطع
وقد صرت فى وصـــف القطايف هائما ترانى لأبواب الكنافة أقرع
فيا قاضيا بالله محتســـبا عســـى ترخص لنا الحلوى نطيب ونرتع

فانوس رمضان :

تكلمت عن الكنافة والقطايف فى الشعر •

وهى ليست وحدها التى حظيت بتسجيل • لقد تكلمت عن فوانيس الأطفال • ولكن الكبار أيضا لهم فانوس ، هو **فانوس السحور** • وكان يعلق على المنارات مضاء حتى السحور ، ثم يطفأ ايذانا بالامساك •

فانوس السحور هذا تبارى الأدباء والشعراء في وصفه فواحد يقول :

أحبب بفانوس غدا صاعدا وضوؤه دان من العين
يقضى بصوم ويفطر معا فقد حوى وصف الهلالين

وانشد ابن ظافر :

السمت ترى شخص المنار وعوده عليه لفانوس السحور لهيب
تراه يراعى الصبح ليلا فان دنا طلوع صباح حان منه غروب
فهل كان يرعاها لعشق فقراذ درى أن رومى الصباح قريب

ولمح آخر الخشبة قائلا :

هذا لواء سحور يستضاء به وعسكر الشهب في الظلماء جرار
والصائمون جميعا يهتدون به كأنه علم فى رأسه نار

ويقول ابن نفطويه :

نصبوا لسواء للسحور وأوقدوا فى رأسه نارا لمن يترصد
فكأنه سبابة قد قمعت ذهبا وقامت فى الدجى تتشهد

وأفرح بالفانوس الملون صغيره ، وأقرأ الأدب العربي كبيرة ، ويستقر هذا كله في أعماقي وأرعاه تحية لهذا الشعب الذى نمانى وتحية للقاهرة فكلما جاء رمضان حرصت على الفانوس الملون يتوسط مائدتى وأشعل فيه الشمعة ويبدو فى عينى أبهى نورا من النجفة الكبيرة التى تتدلى من السقف فوقه .. ويقول الفانوس ويروى بغير حروف .. ويفهم عنه، مثلى ، ضيوفى ، وان لم يقدر هذا أولادى الذين يرقبون ما يجرى فى صمت تأدبا وهم معذورون فلم تعرف طفولتهم الفانوس كما عرفته ، ولم يسمعوا فى الزمالك التى ولدوا بها ، المسحراتى ، الذى سمعته فى أحياء القاهرة الشعبية ولكنهم الآن ، ألفوه ، ودخل في وجدانهم فهم لا يسمعون منى الا حديثا عن مصر والقاهرة فاذا شرعت في اعداد المائدة خفوا الى الفانوس فجاءوا به ووضعوه وسط المائدة تقليدا رمضانيا فى بيتنا يتنفس طيب مصر وعرف القاهرة ، ويطوفون معى أوربا ثم يعودون أشد تمسكا بمصر وأشد تعلقا بالقاهرة .

الحوانيت في رمضان :

كان سوق الشماعين في النحاسين يستعد استعدادا كبيرا لمقدم

رمضان فتعلق على وجهات الحوانيت وأمامها وعلى جوانبها فوانيس ، وشموع مختلفة الأحجام أكبرها حجما ووزنا شموع المواكب الكبيرة ٠

والحوانيت في رمضان تظل مفتوحة الى ساعة متأخرة من الليل ٠ أما سوق السكرية فكان البدالون أى أصحاب البقالة يفرشون على أبواب محالهم الياميش وقمر الدين وكانت رخيصة السعر فى متناول الجميع ٠٠ حتى كانت تقدم للضيوف فى رمضان للتفكه والتسلية بل كانت تبدر على الأطفال الذين يسيرون في زفة بالفوانيس ٠

في رمضان الحوانيت مفتوحة والبيوت الأنوار فيها ، ساهرة والقراءات ذاكره سارية ٠٠ وكان الصيام أشد حرمة يحرص عليه الجميع ، بل يشجع عليه الأطفال في المدارس والبيوت حتى المفطر لسبب يستتر فلا يجاهر بالفطر والا لحقته نظرات الزراية حتى من الأطفال الذين كانوا ما يكادون يبصرون مفطرا حتى يعلو صياحهم ٠

يا فاطر رمضان يا خاسر دينك ٠

ومن الطريف ان الحكومة كانت تعاقب موظفيها الفاطرين بغير عذر شرعى ، بل كان اخوتنا الأقباط لا يأكلون خارج بيوتهم فى نهار رمضان احتراما لشهر رمضان ورعاية لشعور المسلمين الصائمين ٠

وكانت المطاعم تغلق أبوابها فى رمضان وتنتهز الفرصة فتقوم بعملية تجديد وتنظيف ٠ وكانت المقاهى تغلق نهارا لتسهر الليل كله حتى مطلع الفجر ٠

كان رمضان شهرا جامعا وممتعا ٠٠ شهر الصيام والقيام والاطعام بل الاغداق فيه على المعوزين ٠ كان شهر التسبيح والترويح والتفاريح ٠٠ كان شهر القراءات والابتهالات والطيبات ٠

كانت المساجد الكبيرة في القاهرة ، مرادا وموردا في رمضان كان كل منها لؤلؤة في جوف الليل ٠ كانت تمتلىء بقاصديها ٠٠٠ انها بيوت الله يذكر فيها اسمه ويرفع ذكره ويتقرب اليه بالصدقات ٠٠٠ بالعطاء والصفاء ٠٠٠ بالعلم ٠٠٠ بالاستماع ٠

وتزدحم القاهرة بعد الفطور بعد أن تكون الشوارع قد أقفرت من السائرين قبل مدفع الافطار ٠ كان الامام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة سكينة والامام الشافعى والامام الليثى مزارا ودارا ومنارا ٠٠ وتعتز العواصم الاسلامية بأحد أبناء السلالة الطاهرة وتعتز القاهرة بصفوة أهل البيت ٠

ويطلق أهلها عليها مصر المحروسة ويحفظون عن النبى عليه السلام قوله (مصر كنانة الله فى أرضـه من أرادها بسوء قصمه الله) وفى قول (من أرادها بسوء أكبه الله على وجهه •)

وفى كل مرة تعلو مصر المحنة ويزول الشر عنها •

وفى كل مرة يسلم لنا وجه القاهرة •

فســتان العيد :

نحن الآن فى العشرة الأخيرة من رمضان • أتذكرون ما رويتـه عن تقسـيم جـدتى للشهر : عشرة مرق وعشرة حلق وعشرة خلق ••• أى ملابس جديدة لأطفال الأسرة • وهنا أقول ان جدتى كانت تتحفنى بفستان جميل جاهز من عمر أفندى وحذاء جديد وشراب أبيض قصير ولا يتجاوز هذا كله جنيهين • ويأتى دور الشرايط الملونة وكان البائع يقترح عليها أن تأخذ مترا ونصفا تقسمه للضفيرتين نسيت أن أقول انها كانت تربى جسمى ، وتربى شعرى ، وتزهو بأنه صار على يديها ضفيرتين طويلتين، وتربى نفسى يوم عهدت به الى قريبها شيخ مشايخ القراء لتحفيظى القرآن الكريم •

كانت تصر على أن يقطع البائع مترين لكل ضـفيرة متر لتصنع لى فيونكات كبيرة • كان حبهـا لى يتبدى فى كل تصرف من أصغر الأشـياء الى أكبر الأشياء • نبع حنان هى لا يزال يتدفق فى قلبى حتى بعد طول الغيـاب •

وكلما دفعت ابنتى غاليا فى ثوب لها أو حذاء أتذكر فســاتينى الجاهزة التى كانت تشـتريها لى جدتى بقروش •• وتكاد ابنتاى لا تصدقان لولا دماثة التهذيب •

والصحف التى تنشر أخبار المجتمع والمال والأعمال فى الخمسينات أو الأربعينات أو ما بعدهما أو ما قبلهما تتحدث عن أسعار زهيدة متواضعة لأشياء تعد ثمينة فى أيامنـا هذه بمقاييسنا ••• وأدعوهما الى قراءتهـا من باب الدعابة أو الطرافة كالذى نشرته مجلة الأهرام الاقتصـادى فى عددها الصادر ٥ يوليو سنة ١٩٨٢ من مثل فسـتان مشجر سعره الأصلى ٤٨ قرشا مخفضا الى ٢٧ قرشا • وتضحك البنتان •

ويكر شريط الذكريات فأتذكر توحيش رمضـان حين يتغنى المسحراتى بالوحشة لشهر رمضان فيسرى الشجن منه الى الأتقياء • كان المسحراتى يقول (لا أوحش الله منك يا شـهر الصيام ، لا أوحش الله

منك يا شهر القيام ، لا أوحش الله منك يا شهر الولائم ، لا أوحش الله منك يا شهر العزائم ، لا أوحش الله منك يا شهر الكرم والجود) ٠

ويسمع توحيش رمضان أيضا من المآذن وفى ساحات القراء ، وخير ليالى رمضـان ليلة القدر التى ينعقد الاجماع على أنها بدء نزول القرآن (ومن أصـدق من الله قيلا) ٠ « انا أنزلنـاه فى ليـلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ٠ ليلة القدر خير من ألف شهر ٠ تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر ٠ سلام هى حتى مطلع الفجر » ٠

ومن أجل ليلة القدر المباركة ، يعكف كثيرون على العبادة والتهجد ٠ فى العشرة الأخيرة من رمضان ، لأن الأقوال تباينت فى تحديدها بين ٢١ أو ٢٣ أو ٢٥ أو ٢٧ أو ٢٩ فلتكن كلها أو بعضها انها ليلة من العشر الأخيرة يستجاب فيها الدعاء ويتحقق الرجاء بل يصير الماء المالح عذبا فجـأة فى رأى بعض المؤمنين ٠٠٠

انها ليلة القدر ٠٠ طوبى للموعود ٠

الثلث الأخير من رمضان :

تحدثت عن النصف الأول من رمضـان بكل لوازمه وتقليدياته ، أو عن الثلثين الأول والثانى منه ، والأخير يقع فيـه احتفالان هامان كانت القاهرة تحتشد : ليلة النصف من رمضان وفيها كانت القاهرة تقيم حفلة نيلية تشترك فيها الزوارق والبواخر المزينة بالأنوار فما يكاد يمضى يومان حتى يحل ١٧ رمضان فتحتفل القاهرة فى جميع المساجد بذكرى ليـلة بدر ٠٠٠ ان ذاكرة مصر لا تخطىء يومـا من أيام الاسلام المشهودة حتى تلك الأيام الباكرة عليها أقصـد على اسـلامها وان كانت بقيمها القديمة أقرب ما تكون الى مثل الاسلام ومعطياته ٠ ولأمر ما وجدت فيها الأديان من الاسـتجابة والفهم والنفاذ ما لم تجد فى غيرها لا يستثنى بلد أو جيل أو قبيل ٠

كان المفروض أن أحكى حياتى فى القاهرة ولكننى فى حضرة القاهرة نسيت نفسى طويلا وطافت الحكاوى والفناوى من قلبى للقاهرة ٠٠٠ تحدثت عن القاهرة فى حياتى ولم أتحدث عن حياتى فى القاهرة ولكنى فى رمضـان أقابل نفسى ٠٠ أكتب أؤلف ٠٠ أقرأ ٠٠ أعيـد تنظيـم خطوطى ٠

وفى رمضان أقابل الصفوة من العلماء والأدباء ٠ وفى رمضان زارنى

الأستاذ الزيات ، والاثرى حسن عبد الوهاب . وفي رمضان زارني زكريا أحمد ورامى وأمضوا عندى جلسات خصبة عن تاريخ مصر الفنى .. وفى رمضان زارنى كثير من صفوة البلاد العربيـة وان كانوا زارونى فى غير رمضان ، ولكن ميزة رمضان أنه يمد فى المجلس ويطيب فيه الحديث .

ماذا دار فى زيـارات رمضــان .. ماذا قال بيرم وزكريا .. ماذا قص رامى وروى وأنشد .. ماذا قال لى السـبـاطى يوم طلب بنفسـه زيارتى وهو العازف عن الزيارات واللقاءات .

ليالى جميلة وكريمة تقترن عندى برمضان .

وينتهى رمضان وما التهت ذكرياته عندى .. هذا الشهر الخصب الذى أراه موسمى للكتابة .. لقد ألفت فى رمضان كتابا عشت أتمنى كتابته على امتداد سـنوات ولكن التركيز والتعميق ، كانا دائما فى رمضان .. وقد اعتدت حين أفرغ من كتاب ، أن أطويه عن المطبعة وقتا .. أعود اليه ، بعده ، أقرؤه بعين القارىء المستريح لا المؤلف المرهق فى الكتابة أو حتى غداة الكتابة .. وأعدل وأبدل وأحذف وأضيف . انه القلق المشحون الذى يحسـه الكاتب المسئول أمام الله وضـميره والناس .

فى رمضان كتبت أعز كتبى .. كتابا عن عبقرية الاسلام وأسمح لنفسى بذكره بل الافصاح عن اسمه لأن هذا الكتاب نفـد ، بل أنه أصلا طبع للعالم الاسلامى ولم ينزل السوق المصرية فى الطبعة الأولى ثم نزل فى طبعة ثانية وسار .

رمضان شهر الصوم والعبادات ، لم أكتب هذا الكتاب من زاويـة الطقوس أو النصوص على كرامتها عنـدى وأدائى والتزامى بها ولكنى كتبته من رؤية حضارية يعظم بها الاسلام عندى وعند الانسان فى كل مكان بل عند المنصفين من أبناء الأديان الأخرى وان لم يعتنقوه .

كيف كان الاسلام ثورة ثقافية واعية بالخلفية الروحية للوجود .. تلك الخلفية التى غابت عن الوعى المعاصر .. ثورة ثقافية حين ربط الانسان بالكون الرحيب ولم يحصره فى ركن واحـد تحت اسم العلم أو المـادة .

فالثقافة ليست التخصص لأنه اذا اقتصر ، انغلاق أو جمود عنـد نقطة واحدة ضيقة .. ولكن الثقافة هى كيف الحيـاة فى مجموعهـا ..

هي انسانيتها • وهنا نفهم عبارة « والله ولى التوفيق » أى يعطى الاستفادة والنماء مما تحصله الحواس فتسمع العين وترى الأذن • ان الأخذ الرشيد عطاء كامل ، كالنحل يأخذ رحيقا ويعطى شهدا •

بكل صفاء رمضان يصفو الانسان ويصغو الى حديث نفسه ، وفى رمضان أقابل نفسى •

وأقابل فى بيتى الصفوة من أهل العلم والأدب والفن • وكم هؤلاء من لطائف وطرائف •

دعونا مرة الشاعر أحمد رامى على الافطار •• وكان على المائدة حمام فلما انطلق مدفع الافطار قال رامى : الآن لا جناح •

وبعد الافطار يأخذ رامى فى حديث الذكريات •• حديث أشهى من أى طعام يتحدث عن طفولته فى (كتاب الشيخ رزق) وأعلامنا جميعا عرفوا حياة الكتاب وفيه حفظوا الكتاب الكريم • ويتحدث رامى عن بيته وأسرته بين مسجد السلطان الحنفى وجامع الشيخ صالح أبى حديد مجاورا لبيت أسرة شوقى المشهور الى الآن ببيت المورديلى • وكيف أن هذه البيئة الشعبية الحافلة بالتراتيل والأناشيد وتسابيح الفجر تصعدها الى السماء فى هدأة الكون ، مآذن المساجد المحيطة بالبيت ، طبعت نفسه على التوقيع والترجيع والتنغيم فكان يسعى الى الغناء بأية وسيلة ويحكى لنا أنه كان يتعرف الى « بائعى اللب » ليقف منهم على مغانى الأفراح • وكم ذهب اليها من غير دعوة •• ومتى •• فى الحادية عشرة مساء حيث يتجلى المغنى ويحلو معه السهر •

ويستمع أحمد الصبى ، ثم أحمد رامى الشاعر ، الى الغناء فى شطح واستغراق • وله معرفة بالصناعة واجادة اذا غنى •

كان المغنون يعرفون فيه « سميعا فيقربونه ، ومنهم فى صباه يوسف المنيلاوى وعبد الحى حلمى ، وفى شبابه داود حسنى ، وأبو العلا محمد ، وابراهيم شفيق ، وصالح عبد الحى ، ثم سيد درويش كما سمع منيرة المهدية • كل هذا وهو طالب لا يزال بالمدرسة الخديوية ومدرسة المعلمين •

ويسترسل رامى فيقول انه وهو طالب لم يشغله تحصيل العلم عن الفن • ومن طرائفه فى هذا الباب أنه كان يقف فى مناحات الخميس ويبكى حتى العصر !! وكان يهيم وراء البائعين المتغنين فى الشوارع والحارات حتى لقد مشى يوما وراء عربة جميز من بيته فى حى السيدة زينب حتى بولاق • (١)

---

(١) كتاب (أحمد رامى قصة شاعر وأغنية) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد

والشعب المصرى يحب الغناء حتى أن الباعة المتجولين ينادون على سلعتهم فى تنغيم وتطريب ·

وكان رامى وهو مدرس يخرج عن موضوع الدرس ويلقن تلاميذه أناشيده الشعرية بعد أن يلحنها لهم ، على غرار بعض الأغانى الشائعة ·· ومن فصله ·· ومن تلاميذه ينتشر النشيد فى المدرسة كلها ··· بل فى أحيائهم التى تقع بيوتهم فيها ··· يفعل هذا حتى فى حصص الديانة ·

وهو لا ينظم الا اذا سمع موسيقى أو غناء ، واذا نظم لا يكتب شعره ، بل يغنيه ترنيما · ولعل هذا سر ليونة لفظه وطواعيته ·

وللشعراء عادات تغيب عنا نحن القراء ونحن مسحورون بالقصيدة · شوقى يزعم أنه ضعيف النظر فيسعى ويأخذ مكانه فى الصفوف الأمامية وهناك يترنم به (ويدندنه) · وفى الاستراحة يقابل (رامى ويسمعه شعره) ·

وهنا أقول ان شوقى أعجب برامى واختصه ، وكان يطيب له أن يدعوه الى بيته فى حفلاته ، وأن يرافقه فى خلواته خارجة ··· وكان رامى يروق له أن يلقى شعر شوقى فى الأندية · وتوثقت الأسباب بينهما حتى أن (شوقى) كان يسمع (رامى) شعره قبل اخراجه للناس ·

وتشاء الأقدار أن تجمع بينهما فى الشعر كما جمعت بينهما فى الحياة · فحين سافر رامى سنة ١٩٢٣ الى باريس فى بعثة علمية ، كان شوقى يزور فرنسا كل صيف فيلم به رامى ·· وفى سنة ١٩٢٤ عاد رامى من فرنسا وعرف أم كلثوم ولازمها · حين لازم عبد الوهاب (شوقى) فالتقى الشاعران عن طريق الغناء فقدم شوقى (بلبل حيران) و (فى الليل لما خلى) حين قدم رامى (ان كنت أسامح وأنسى الأسية) و (أخذت صوتك من روحى) · والتقيا مرة أخرى عن طريق المسرح ، اذ قدم شوقى للمسرح المصرى مسرحيته (مجنون ليلى) ، وقدم رامى مسرحيته (غرام الشعراء) · ومثلت المسرحيتين ، السيدة فاطمة رشدى ·

وكثيرا ما ضمهما على الوداد ، نادى الموسيقى الشرقى ·

ويحكى لنا رامى ، قصة عمره ··· قصة أم كلثوم ·· قصة غنية ونقية معا ·· وهى أكبر من صفحات معدودة لقد كتبتها فى كتاب يربو على خمسمائة صفحة وفى نفسى مزيد ·

لقد سافرت مرة فى رحلة على امتداد شاطىء البحر الأحمر · وكان على الباخرة الشاعر أحمد رامى واتصل من جديد حديثنا عن أم كلثوم حبيبتنا كلنا على امتداد الساحة العربية كلها ·

سألته مرة : ألم يحدث أن أحببت غيرها ؟ سألته كمن يطمئن على شيء كبير ٠٠ كبير ٠٠ وطال انتظارى للجواب ، على لهفتى وخوفى ٠٠٠ حتى هتفت به : قل لا ٠٠٠

اشتهيت أن يقول لا ولكنــه قال نعم ! ٠٠ وتركنى ذاهلة مبهوتة لحظـــات ٠

وفتح رامى عينيه بعد أن كان اسبلهما طويلا ثم ابتسم وقال :

كنت فى كل مرة أكتشف سريعـــا أننى أحب فى الأخرى ســــمار أم كلثوم أو عينيها أو يديها ٠٠٠ شيئا منها ٠٠ جزءا ٠٠ فأدرك السر وأعود أكثر ولعا الى المنبع ٠٠ هى الكل ٠٠ الكل فى الكل ٠٠ انها سومه٠

ويقر وجيبى ٠

ثم حاولت ان اسأله : وهل احبتك هى هذا الحب كله ؟ ولعل الشاعر صادف مثل هذا السؤال كثيرا فى طريقه فهو يقول :

أرادونى على أنى أبـــوح	وهل يتكلم القلب الجريح
وماذا يبتغــون وفى فـــؤادى	جوى أفضى به الدمع الفصيح
نعم أهوى ولا أخفى غــــرامى	ومن شرف الهوى أنى صريـــح
وأما ان ســئلت هل اصطفتنى	سكت فما اســترحت ما أريح
ومــن لى أن أقــــول تعلقتنى	وقاب الغانيــات مدى فســـيح
تلاقينى فتخلص بى نجيـــــا	والمس حبهـــا فيمـــا يلوح
وتزدحم القلوب على هواهـــــا	فتنكرنى ولى كبــــد قريـــح

ويلمح اشـــفاقى فيقول لقــــد غنت لى وحدى خمســــة وثلاثين عاما

وقفت ترســــل الغنـــاء فأنت	بلسانى ونوحت فى غناهـــا
وشجاها ما رجعت من تسـبيبى	وشـــجانى من صوتها ما شجاها
فاحتواها الشجا وراحت تغـــنى	« يا هناه » فى هجرها ورضاهـــا
يا هنائى شـــقيت بالهجـــر حتى	وصلتنى وزال عنى جفاها
يا شـــقائى نعمت بالقرب حتى	حرمتنى الأيام طيب لقاهـــــا

وحرمتنا الأيام معه طيب لقاها وبتنا نتعزى بطيب غناهـــا الذى يقف فى حياتنا الفنية ، قمة وحده حتى بعد الغياب ٠

بيرم التونسى

تحدثت عن شاعرنا أحمد رامى ٠٠ أطياف ذكريات ٠ وكان يزورنى فى رمضان من أعلام الأدب والفن الأستاذ بيرم التونسى ، والفنان العظيم زكريا أحمــد ٠

أتحدث عن بيرم التونسي وكل زجـال في مصر أفاد من بيرم حتى من يكبرونه سنا · واذا ذكر بيرم ذكرت قصـيدته الشهيرة « المجلس البلدى » وكم كان يحلو له أن يقولها وزكريا يستحثه · وفي هذه القصيدة يسخر من رسوم بلديات المدن وان كان يعنى بها مجلس بلدى الاسكندرية في صباه :

قد أوقع القلب في الأشـجان والكمـد
هـوى حبيب يسـمى المجلس البلدى

ما شرد النوم عن جفنى القريح سـوى
طيف الخيـال خيـال المجلس البلدى

اذا الرغيـف أتى فالنصـف آكله
والنصف اتركـه للمجلس البـلدى

ولم أذق طعـم قدر كنت طابخهـا
الا اذا ذاق قبـلى المجلس البلدى

ولا كسـوت عيـالى فى الشـتاء ولا
فى الصيف الا كسـوت المجلس البلدى

اقول حتى اذا مـا فى الطريق أرى
قرشـين ذا لى وذا للمجلس البـلدى

كـأن أمـى بـل الله تربتهـا
أوصت فقالت أخوك المجلس البـلدى

هل دامت الرسـل بين العاشـقين كما
تـدور بينى وبين المجلس البـلدى

امشى فاكتـم أنفـاسى مخـافة أن
يعدهـا عـامل للمجلس البـلدى

وان جلست فجيبى لسـت أتركه
خوف اللصوص وخوف المجلس البلدى

الأرض والناس والأنعـام أجمعهـا
الكل ليس لغـير المجلس البـلدى

حتى قبور الالى مـاتوا اذا نبشـت
فليس الا بفـأس المجلس البـلدى

يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدى

أخشى الزواج وأخشى أن ينافسنى
على العروس صديقى المجلس البلدى
وربما وهب الرحمن لى ولدا
فى بطنها يدعيه المجلس البلدى

اقسمت لا أدخل الجنات ، عن ثقة
فى الحشر ان كان فيها المجلس البلدى

وقد كان لهذه القصيدة دوى امتد صداه عشرات الأعوام بعد نظمها ، ولا تزال علامة فى أدب بيرم لا يخطئها دارس له ٠

ويطلب الشيخ زكريا الى بيرم المقامة السندوتشية فيتربع بيرم على أريكة عندى يفضل الجلوس عليها والاتكاء الى مسندها ويقول وعين زكريا تلتهم الكلام فى اعجاب لا يلبث أن يصبح استغراقا فى الضحك ٠

اليكم طرفا من مقامة بيرم السندوتشية ٠

(قال صاحبى شفيق أفندى ، وجعل يسهر كل ليلة عندى ٠ وشفيق هذا لا يحب الشيوخ الا انه يحترمنى ويمسح لى جوخ لأنى أشرح له معنى الكلام ولبابه ، وأكشف بالنحو خطأه وصوابه ٠

جاءنى شفيق ذات يوم يقول : قم فاستنشط ، ودقنك فمشط ، وأظافرك فقمع ، وحذاءك فلمع ، وجبتك فالبس ، وعمتك فاكبس فسآخذك الى حفلة راقصة ، وليلة أنس هائصة لتعرف مجارى المياه ، وترى كيف تكون الحياة ٠ قلت ماكنا من أهل النقص ، حتى تذهب الى حفلة رقص ، أو ترقص انت أيضا ؟ قال وأفيض فيضا ٠ فقمت فلبست جبتى التى لونها كمونى ، وقفطانى الذى أرضيته خضراء وخطوطه زيتونى ٠ وتعطرت من القدم الى الدماغ ، وركبنا عربة بخمسة عشر قرش صاغ ٠ فلما وصلنا الى الحارة ، لم نجد على المنزل دليلا ولا اشارة ٠

ولكن بيرم ما لبث أن وجد البيت ووصف الحفلة والمائدة وصفا رائقا فائقا وكاركاتيريا أيضا ٠٠

ويحكى لنا بيرم عائدا بذكرياته الى سنة ١٩١٩ حين أصدر (المسلة) بدون رخصة ٠ التسمية أعزائى القراء لها مدلولها لقد كان بيرم متعلقا بمصر تعلقا شديدا ويؤلمه أن تنسبه الى غيرها بحكم الجذور البعيدة ٠٠ كان دائما يقول لى : بعد كل هذا تظلمونى وتقولون بيرم التونسى ٠ ومن تعلقه بمصر ، انغماسه فى الأحياء الشعبية وتعبيره عنها ٠

ومن تعلقه بمصر كتابته بالعامية المصرية التى اعتبرها العربية المصرية واجادته فيها الى حد البراعة البارعة حتى كان شوقى أمير الشعراء يقول (لا أخشى على الفصحى الا من بيرم) وهو اعتراف له قيمته بأنه يبز الفصحاء ٠

يقول عنه الأستاذ العقاد :

كانت آية الآيات فى بيرم أنه كان يفهم السريرة الناطقة بالعربية من بواطنها الخفية قبل أن يحكيها بلهجاتها الكثيرة على الألسنة او الأقلام) ٠

أعود الى ذكريات بيرم والى مجلة المسلة ٠

لقد أصدر منها ستة أعداد ثم نفى وأخذ يراسل مجلة (الشباب) ٠

كان يكتب أزجالها وأشعارها وصورها الوصفية فكانت متعة ومدرسة ٠ وصاحبها محمد عبد العزيز الصدر (توفى سنة ١٩٥٨) ٠

مدرسة للشباب المصرى ٠

واكبر راوية لبيرم الشاعر حمام الذى كان يملأ المجالس بأشعار بيرم وأزجاله ومقاماته وسخرياته حتى لم يبق من كبار الأدباء ورجال المجتمع الا من عشق بيرم ٠

وبيرم مصور ، وصور بيرم هى فن الكاريكاتير القلمى :

هذه صورة لها نظائر ، يصف فيها بيرم لبان الحى :

لباننا لا رعاه الله ذو ورع　　　يبيعنا الماء لم يخلطه بلبن

ومن روائع بيرم تقليده للشعراء وفى مقدمتهم شوقى :

قلد الشاعر احمد شوقى حين يرثى ، على هذه الصورة :

أحد الفرقرين بالأمس طاحا　　　ويحه ألهم السما النواحا

سمعت نعيه البرية خالت　　　أن ميكال بالبرية طاحا

وقلد حافظا حين يرثى ـ كذلك ـ فقال :

صدرنا نهار الروع عن قبر مصطفى　　　كأنا يتامى ينشدون المواسيا

وقلد محمد الهواوى فقال :

زلزلة اليابان جاءت بلا أوان

فهلك العباد لكن نجا الميكادو

ويشتد ضحك زكريا حين يسمع تقليد بيرم للشاعر البدوى الشيخ محمد عبد المطلب ونسمع وسط الضحك صوت زكريا « قول يا خويا » ويقول بيرم :

اذا بعبعت أو جعجعت يـــومـــا تحمحمت الخـــلائق أجمعـــونا

وقلده متحدثا عن زلزال :

واهـــا لربـــع قـــام يستبكى متبعجص الجنبـــات منـــدك

وقلد شعر المنفلوطى على انه يصف التليفون قال :

يا يراعى أســـعد يمينى وانظم فى التليفـــون هـــذه الأشـــعارا
وتوخ الســـهل المنيع وحـــادر أن تـــرى يا يراعنـــا مهـــذارا
هـــذه آلـــة التكلـــم دقت : فتغنت وحـــــركت أوتـــارا

ويغرق زكريا فى الضحك ونحن معـه ، ويغرق خيـــال بيرم فى الوصف مقلدا أعلام عصره .

قلد بيرم المرحوم الشيخ ابراهيم سليمان وهو أحد خطباء ثورة ١٩١٩ وشعرائها فنظم على لسانه فى وصف التلغراف كما قلد الشيخ الهاشمى يصف الأنوار الكهربائية وقلد « بقيت » .. يصف الترام .

وما وصف هؤلاء ولكنه خيال الفنان بيرم التونسى ...

يصف بيرم الأنوار الكهربائية متقمصا شخصية الشـــيخ الهاشمى صاحب كتاب (جواهر الأدب) .

بشرى فقد وصف الأستاذ ما عرفا شمس الكهارب فى أفق العلا طلعا
تضى فى الليل والمداد يحسبهـــا الساعتـــان بمليـــم فواعجبـــا
لها كذلك زر شـــانه عجب يضيئها الزر طـــرا كلمـــا انفتحا

اما صورة الترام التى رسمها بيرم باسلوب الشيخ بخيت فهى :

ان ارتكانا عـــلى لوح من الخشـــب
لم يبق شخصا من الاشخاص فى تعب
لله هذا تـــرام حـــين تركبـــه
نستغنى حقا عن الأفراس والنجب
ان الترام عجيب حين يخـــرج منـــه
شبرا فكالوت فالميـــــدان فالعتب
(يقصد كلوت بك) أى العتبة الخضراء

وهكذا طلع بيرم على الحياة الأدبية بالجديد النابض الجذاب حتى الأوزان جدد فيها · لقد اخترع بيرم أوزانا فى الزجل · ومن ابتكاراته الزجل الرباعى فى هذه الصورة الرائعة من صور بيرم ·

فى كل عام للورد أوان	الا النسوان
بقدرتك نابتين الـوان	أبيض وأحمر
وانت اللى تعلم وأنا أجهل	فيه ايه أجمل
من الخدود اللى لا تدبل	ولا تتغير
ودى العيون اللى أشهد لك	بها واسجد لك
دى خلت الطاغى انقادلك	والمتكبر
والشفتين اللى فالقهم	كنت خالقهم
للابتسام ولا رازقهم	دا انت تحير
لك قوالب للأجسام	غلب الرسام
يقلدك بحجر ورخام	يلقاك اشطر
بذمتى يا جاذبنى	يا معذبنى
ويااللى ذوقك يعجبنى	لما تصور

وهكذا يصنع أو يبدع الفنان ويصور ولكنه الى جانب روائع الله فى الخلق يحار أمام المصور الأعظم الخالق البارىء ومن أحسن من الله صبغة ·

حكى لى بيرم فى زياراته أن الترام فى أول ظهوره فى شوارع الاسكندرية كان حدثا أو أعجوبة فى عين الناس الذين كانوا يتناقلون أخباره وحوادثه أيضا ·· ويلعب الخيال الشعبى دوره فى حكايات ضحايا الترام ممن دهسهم أو كهربهم ·· أما الظرفاء فقد أخرجوا لسانهم للعربجية أصحاب الحناطير فى اغنية تقول :

الكهربائية الكهربائية   عطلت ع العربجية

ولكن عربجية الكارو اقتصوا لزملائهم عربجية الحنطور فكانوا لا يحلو لهم السير الا على طريق الترام أى بين القضيبين ولا عليهم أن يكون هناك ترام وراءهم أو أمامهم أو كمسارى يصرخ أو تصيح زمارته فيهم · ويحكى بيرم أنه كان جالسا على عربة كارو مع الأطفال آخرين فى صحبة أمهاتهم متجهين الى حى « الأنفوشى الشعبى » · وكانت العربة الكارو التى يركبونها تسير على القضبان معترضة تراما ضخما مهولا وزمارة

الكمسارى التى ترفع عقيرتهـا أشـد هولا ٠٠ ولكن صاحب العربة الكارو لايبالى كمن يتحدى ٠ وفزعت النساء والأطفال وصرخت الأصوات من الفزع القاتل ٠ من الطريف قول بيرم : أن بعض النسوة كن يتوسلن الى العربجى:

يبارك لك يابنى تقول له يحود ٠٠ قل للترماى يروح من ناحية تانية ٠

الترام هو الذى (يحود) لا العربجى ٠

وبعد لأى أو جهد اذعن العربجى مضطرا وهو يرغى ويزبد ويلعن أسرة سائق الترام واحدا واحدا بدءا بالآباء وانتهاء الى الأجداد ٠

ويظل بيرم ساعات يتنقل بالذكريات من الأنفوشى الى مسجد المرسى ابى العباس وكيف يثق الناس فى بركته وكيف أن الرجـال يطوفون به ملتمسين البركات ٠ أما النساء فيملأن من الميضة القلل لأبنائهن المرضى بالحصبة والتيفود وكان الأخير فى ذلك الوقت مرضا خطيرا ولكن المرسى أبا العباس فى نظر ســيدات الاسكندرية سره باتع فماؤه يشفى جميع الأمراض ٠ ويعلق بيرم : وماؤه أى ماء حنفياته من ماء ترعة المحمودية ، ولكنه الوجدان المصرى الدينى والأنيس ، فكل بلد له شيخ يؤنسه ويريحه ويلتمس عنده البركات ٠٠ مع اعتقاد مصر الراسخ والأصيل فى الله الواحد الذى لا خير الا خيره ولا اله غيره جلت صفاته ليس له كفوا أحد ٠

احاول أن اقفل ذكريات بيرم لأنها عندى بحر ، ولكننى أريد أن انتقل الى غيرها من الذكريات ذكـرياتى وذكريات من عرفتهم من أعـلام مصر والقاهرة ٠ دعنا من حى السيالة وفيه الكتاب الذى تردد عليه بيرم طفلا ٠٠ لقد عاش بيرم فى مختلف البيئات وعرف كافة الأوساط حتى لم يترك شيئا الا وصفه أقصـد صوره فى سخرية ضاحكة ولكنه الضحك المندى بالدموع ٠٠ وانى لأحفظ عن ظهر قلب حتى قبـل أن يزورنى ويغدو لأسرتى صديقا ، لوحته : (فى الطريق) ٠

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلين
ساحبين بتاعة حلاوة جايه من شربين
شايله على كتفها عيل عنيه وارمين
والصاج على مخها يرقص شمال ويمين
ايه الحكاية يابيه ؟ خالفت الجوانين !
اشمعنى مليون حرامى فى البلد سارحين

ولكن زكريا الفنان يعدو هذا كله ويطلب الى بيرم لوحة أخرى ٠٠ لوحة الغناء وينطلق بيرم وكان زكريا لمس منه وترا حساسا ؟

طلعت موضة غصون وبلابل شايط فيها حزين
شاكي وباكي وقال مش عارف يشكي ويبكي لمين
والي جابت له الداء والكافيه ، طرشه ماهش سامعاه
ياأهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله
ردى عليه ياطيور بينادى ، وارمى له الجناحين
وانت كمان يابابور الوادى ، قل له رايح على فين
قل له اياك يرتاح يا بابور ، ويريحنا معاه
ياأهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله
حافظين عشرة اتناشر كلمة نقل من الجورنال
شوق وحنين وأمل وأماني وصهوتيه ودلال
والي تعاد يتزاد ياخواتا وليل ونهار هواه
ياأهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

آه لو امتد العمر ببيرم وشهد موضة أخـرى وبيله وهي موضـة الكاسيت وقد سبق أن تكلمت عنها فلا حاجة بي الى الاعادة ٠

دخل مرة بيرم وكانت ليلة حفلة أم كلثوم ووجدني مستغرقة أستمع اليها في أغنية (عودت عيني على رؤياك) وبعد أن انتهت الوصلة جلست معه أحلل أداءها في استغراق أشـد ٠٠ واذا بي أرى بيرم يتميز غيظا وهو يقول : اني ، فنانا ، أقدم روائع فلا أجد بعض هذا الاستغراق أو لمحة منه فأنقل الحديث في محبة الى قصته مع أم كلثوم وهنا يشتد عتابه على رامي لا عليها ٠ كان يقول مهما عملت لا أستطيع مغاضبتهـا ٠ ما حيلتي وعندها شاعر يقدم لها القصائد مجانا في ولاء وفناء ؟

وأسأله هل فكرت أن تعطي مثلا رائعة (شمس الأصيل) لأى صوت آخر من الرجال أو النساء فيقول : مستحيل ٠٠ ولو عاد بي العمـر لا أعطي غيرها مختارا ٠ ان أداءها يكتب للشـاعر الخلـود ٠٠ الهنـا « أم كلثوم » ٠

زكريا احمد :

دعوني أروى لكم ذكرياتي عن الفنان العظيم زكريا أحمد وكان

لنا صديقا · كان زكريا يحدثنا كأننا أطفاله وهو الأب الحانى · جعبته مليئة بالحكايات ، وكنا نستمع له في شغف واستمراء · وكان يحس هذا منا زوجي وأنا · فيعود بنا الى السنبلاوين حيث دعاه سنة ١٩٢٠ التاجر (علي أبو العينين) الى احياء ليالي رمضان بتلاوة آي الذكر الحكيم ·· وكان الفنان زكريا شيخا مقرئا ·· وهو سر نفاذه الى أعماق اللفظ والمعنى وارتفاع ألحانه وتحليقها تحليقا ·· واشترط تاجر السنبلاوين على الشيخ زكريا أن ·· يغني أيضا بعد تلاوة القرآن ·

وافق الشيخ زكريا على الشرط وبدأت سهرات رمضان ·· وما هي الا بضعة أيام حتى أسروا اليه أن في جعبتهم له مفاجأة عظيمة ·· ولم يطل تساؤله فقد أخبروه أنهم اكتشفوا في البلد المجاورة لهم أجمل صوت سمعوه · ولم يطل انتظاره فقد حضرت الفتاة أو أحضروها على الأصبع · ودخلت الصغيرة ذات العقال تتعثر في خطواتها من تهيب وحياء يلفه الخوف ومعها شيخ صغير يلبس الطقم كاملا ·· الجبة والقفطان والعمامة ·· ولعل هذا (التكامل) في الزى الوقور أكسب الفتى ثقة في نفسه جعلته يتقدم أخته في اعتداد كمن يرسم لها خطواتها ·

ولكن عين زكريا الفنان وقعت على الفتاة دون أخيها فأجلسها الى جواره ، وأخذ ينفض عنها خوفها بالحديث الحانى · فاذا بالريفية المتلعثمة الخطوات طليقة اللسان والعقل والصوت ، واذا بحديثها منور من الذكاء ولطافة الروح · وما لبثت أن غنت فتم لها الاستيلاء على الشيخ زكريا الذى يقول :

(ومنذ ليلتها وأنا أصم لا أسمع الا صوتها ، أبكم لا أتحدث الا باسمها ··· لقد أصبحت مفتونا بها وأقول مفتونا ، لأننى أحببتها حب الفنان للحب الخالد · تمنى العثور عليه دهرا طويلا ·

لست بحاجة الى أن أقول ان الفتاة الخفيفة اللطيفة الذكية الموهوبة ، هي الصغيرة أم كلثوم في مطلع حياتها ·

دعا زكريا الصغيرة أم كلثوم طيلة شهر رمضان فلبت جريا وراء القصائد والأغاني التي يغنيها وتطرب لها ، والتي كثيرا ما كان يحاول تحفيظها ليا كما دعته الى زيارتها بقريتها « طماى الزهايره » ويحكي لنا الشيخ زكريا ، وبيرم ويسمع ، معنا طرائف أول زيارة لأم كلثوم في قريتها ويتصل الحديث ويسهر معنا الليل طروبا مثلنا ·

مضينا مع الفنان زكريا أحمد الى قرية طماى الزهايره حيث دعته الصغيرة أم كلثوم الى زيارتها · يقول زكريا : لبيت الدعوة وتناولت

الطعام على طبلية جلسنا حولها على كليم لا أزال أذكر لونه احمر على أسود ونهشنا أوزة كاملة ثم لعبنا عشرة كوتشينة • ومنذ يومئذ أخذت أم كلثوم وشقيقها يحضرون لسماعي كل يوم في سراى أبي العينين • ومما أذكره أن المرحوم الشيخ خالد لم يبد اعجابه بصوتي • ولكن الذي أعجبه مني أنني (الفقى) الوحيد في مصر اللي عنده عشرة أزواج من الأحذية •

ومن الطريف ان الشيخ زكريا ظل يردد بعد أن اشتهرا معا ثم تقاضيا :

(أم كلثوم لها عندى وزه ولى عندها ٤٠٫٠٠٠ جنيه) والحقيقة أن حقه كان عند الاذاعة ، لا عندها وتسأله عن عمر أم كلثوم في ذلك العهد فيقول :

كانت أم كلثوم سنة ١٩٢٠ صبية لم تتجاوز بعد طور الحداثة حتى ليترضاها زكريا بمص القصب معها ، ويلاعبها الورق على الطبلية فقد كانت لا يستهويها شيء كالموسيقى والمرح •

يقول زكريا أنه عاد الى القاهرة بعد أن انتهت ليالى رمضان مخلفا أم كلثوم بطماى الزهايرة ولكنها بلقانه الفطرة كانت حريصة على هذه الفرصة الفنية التي أتاحها الله له فقد أخذت تراسله • ويصف لنا زكريا خطاباتها الأولى في ذلك الحين بأنها كانت تحمل عبارات ساذجة مكتوبة بحبر أخضر يذكرني بالخضرة والصوت الحسن ، وكانت خطاباتها تدفعني دائما الى القيام بالدعاية لها هنا من حيث لا أدرى ولا تدرى •

أما أول رسالة كتبها لها فلم تكن في مثل عقوبة رسائلها • كانت رسالة لها مضمون محدد الغرض فقد طلب اليه صديق تاجر احياء فرح له فكتب لها فلبت دعوته • ومن الطريف ان الأجر المتفق عليه كان ثمانية جنيهات وهو الرقم الذى ارتفع اليه أجرها سنة ١٩١٩ عند ما ارتفعت أسعار القطن رفعها الشيخ زكريا بعد الحفلة الى عشرة •• وقد دعا الى تلك السهرة المرحومين الشيخ محمود والشيخ أحمد ندا فأمنا على ذوقه ورأيه •

ويحكى زكريا ولم يكن الصلح قد تم بينهما بعد ـ أنه عشق صوت الصغيرة أم كلثوم فكان يهديها ألحانه واندفع بملء حماسته يدعو لها ويشيد بها ويقيم لها الحفلات الغنائية في الحسين مرباه وجعل الدخول بتذاكر • وأغراه نجاحها باعادة الكرة في نادى الشبيبة •

ويقول زكريا انه أم كلثوم فى ذلك الوقت تقدم اليها الخطاب ومن بينهم العمدة الثرى والتاجر الملء وكثيرون • غير أنها لم يفلح معها الثراء والاغراء بكل ألوانه •• لقد اختارت •• اختارت الفن •

ويقول ان الاشـــتغال بالفن كان يأتى لأصـــحابه صـــدفة حتى الموهوبين ، الصدفة وحدها هى التى كشفت عن مواهبهم • وكان من الجائز أن تظل مخبوءة لا يدرى بها أحد ، ولا الأيام •

ومن طرائف الصدف أن أسندت الى الشـــيخ زكريا الطيب السمح دورا تمثيليا بعيدا كل البعد عن الطيبة (فى بدء عهد مصر بالسينما) • وكان يتندر برواية هذه القصة فى مجالسه كلها • يقول الشيخ زكريا (اتفقت مع مدير انتاج ـ فيلم انشودة الفؤاد على أربعمائة جنيه مقابل الألحان وبعد أن فرغت منها ، وذهبت أطالب بالمبلغ ، وكان هـذا أقبل بدء التصوير ، فوجئت بالمنتج يقـــدم لى أربعمائة قرش صـــاغ فثرت وهجمت عليه أريـد ان (أطبق فى زمارة رقبتـه) وكدت أفتك به •• وتصادف ان كان مخرج الفيـلم موجودا ولاحظ علامات الشر فى وجهى فاصر على أن أقوم أنا بدور البطل الثانى فى الفيلم) •

ومن الطريف أيضا أن فيلم أنشودة الفؤاد هذا قصة وضع حوارها وأغانيها الأستاذ عباس محمود العقاد •

ومن طرائف زكريا والانسان التى رواها لنا ، فى احدى زياراته الرمضانية ، أنه عاد يوما الى بيته فاذا ببائعـة فجل ترجوه أن يشترى منها •• فاشترى زكريا المشنة كاملة وأنقدها جنيهين •

ولم تصدق المرأة المسكينة عينيها الا بعد أن حمل المشنة وســار بها فاخذت تدعو له •• ويسمع دعاءها فتترقرق عينـاه • ولكنه ما ان دخل البيت حتى انزعجت زوجته ماذا تصنع بمشنة فجل فقال لها زكريا : تصرفى وزعيه على جيرانك ولكننى لا أستطيع أن أترك المسكينة تمشى اليوم كله تبيع الفجل واحدة واحدة وتشقى • انها عاطفة الفنان •

ومن طرائفه ما يرويه من أن عبده الحامولى ومحمد عثمان ، فى وقت ظهورهما ، كان اذا ظهــر فى الأفق صـــوت جديد يقوم كل منهما بامتحانه امتحانا عســيرا فيطلب اليـه أحدهما أن يغنى موالا من عدة نغمات ثم يؤديه على (الواحدة) ثم توشيحا من ضرب معين ، فاذا اجتاز هذا الامتحان لبس (حزام) الطرب وأصبح مطربا •

ويقول انه لمعت فى الربع الأول من القــرن العشرين أسماء : كامل

الخلعي ومحمود رحمي وكان ٠٠ أستاذ فن التوشيح وداود حسني صاحب (لحن المراكبية) و (ليلة في العمر) وغيرهما ٠

والدكتور صبري النجريدي ومن العوادين (علي أحمد صادق) وكان مشهورا بكثرة محفوظه من البشارف والموشحات والسماعيات التي أخذها سماعا من كامل الخلعي ودرويش الحريري دون أن ٠٠ يستعين أثناء العزف بالنوتة ٠

ومن عازفي العود محمد عبد الله بك رشيد ٠

ومن هواة العازفين على الكمان مصطفى ممتاز ٠

ومن عازفي القانون الهواة محمود رأفت ٠

ومن المطربين والملحنين سيد مرسي ومحمود صبيح الذي كانت نوادره أشهر من أعماله الفنية ٠

ومن المطربين عبد الحي حلمي الذي كان زكريا يستمع الى اسطواناته حتى يضبطه أبوه متلبسا بالطرب في نظره ، فيلهب ظهره بالسياط ليصرفه الى حفظ القرآن ٠ ان القرآن الكريم لايمثل فقط بلاغة اللغة العربية ولكنه يحوي موسيقاها أيضا وتطريبها وكل ما في جرسها من رنين ٠ هذا اذا قرىء قراءة ٠ فاما اذا رتل ترتيلا فهو يضم الى موسيقى الأسلوب الكثير من الأنغام الشرقية ٠

وقد كان زكريا في سنته الأخيرة يريد أن يضع له ترتيلا جديدا ليضم الى مجموعة أنغامه باقي الأنغام الشيقة ٠

نعم حفظ الشيخ زكريا القرآن ٠٠ ولكنه مضى في عشقه للفن والنغم الجميل ، ولعل حفظه للقرآن هو الذي عمق في نفسه حب التنغيم ٠ نسي زكريا العلقة وقدم بداية ألحانه سنة ١٩٢٤ فاذا بالشعب يستقبلها استقبالا حفيا ٠ بل ان زكريا وضع ما بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٣٠ بضع مئات من الألحان ٠٠ المسرحية وعاش جمهور المسرح سنوات ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ في فيض هذه الألحان وتسيد زكريا فن الطقطوقة خاصة وهو اللون المصري الصميم بين الأدوار التركية والموشحات الأندلسية والأوبرات الأوربية ٠

كم كانت خصبة ممتعة جلسات الفنان العظيم زكريا أحمد ٠٠ لا تزال الذكريات تنهل ٠

يقول الشيخ زكريا فيما رواه لنا ، كان فنانو الشام يسعون الى القاهرة يأخذون عنها أغانيها وألحانها ويعيشون عليها بعد عودتهم الى

بلادهم ، حتى اذا بليت من الاستعمال ، سعوا من جديد الى ٠٠ القاهـرة ٠

ويؤيد هذا ما قرأته في مجلة (المسلمون) .العـدد ٣٥ الصادر في ٤ رمضان سنة ١٤٠٢هـ ٢٥/٦/٨٢ من ذكريات الشيخ على الطنطاوى الكاتب السورى الكبير ٠

يقول حين دعى في شبابه الى زيارة مصر (انكم لا تدرون ماذا اثارت هذه الدعوة فى نفسى من مشاعر وفى ذهنى من خواطر) ٠

كانت مصر في خيالنا يومئذ دنيا مسحورة ، فيها العجائب ، وكل مرغوب فيه يأتينا منها ، المجلات والصحف والحركات الفكرية والوطنية ٠ فيها الرجـال الذى نقـرأ لهم والشعراء الذين نحفظ شـعرهم منهـا ، وكان تخيل ذهابي اليها ، أكبر من أن يمر وصفه من شق القلم والتعبير عنه مهما كان بليغا لا يبلغ حقيقته ٠

وكنت اسمع ان الأحرار من اربـاب الاقلام ، ومن عشـاق الحرية يؤمون مصر : أستاذ محمد كرد على ومن قبله شـيخ مشايخنـا السيد رشيد رضا ، ومن بعده خالى وأستاذى محب الدين الخطيب ، يأتون من كل مكان من (المغرب من الجزائر من تونس من ليبيا) ٠

حتى اذا وصل اليها ٠٠٠ (حتى اذا قيل : هذه مصر ورأيت محطة باب الحديد ، رايت شيئا عظيما كان فوق ما كنت أتخيل) ٠

الصالونات الأدبية

الصالونات الأدبية

كانت القاهرة فى طفولتى عاصمة مصر ثم عاصمة الثقافة والفن والأدب ـ كانت صحفها تضم كل صحيفة صفحة يومية للأدب وكان بالقاهرة سبع ـ مجلات للثقافة منها « الرســـالة » للأستاذ الزيات « والثقافة » للدكتور أحمد أمين و « المجلة الجديدة » لسلامة موسى » ، و « الجديد » للمرصفى ، و « العصور » لاسماعيل مظهر و « الفصول » لزكى عبد القادر و « المعـــرفة » لعبد العزيز الاسلامبولى و « البيان » للشيخ البرقوقى و « عكاظ » ٠

وكان فى القاهرة جمعيات أدبية ، وكان فيها صالونات أدبية وفكرية منها صالون تيمور ولكن أشهرها صالون عبد الرازق الذى أنشأه عميد عائلة عبد الرازق الشيخ مصـــطفى عبد الرازق ، والذى كان أستاذا بالجامعتين جامعة القاهرة والجامع الأزهر بل كان شيخا للأزهر واماما أكبر للمسلمين ٠

كان الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذا فى الجامعة وأستاذا رائدا فى صالونه الأدبى ، وأستاذا وهو شيخ الأزهر وأستاذا وهو وزير ٠٠ فقد كان ، وزيرا ، يشرف على الرسائل الجامعيـــة التى بدأها قبل توليه الوزارة ٠

انه ابن التقاليد ، وبيتــه فى المنيـــا فى الذؤابة من بيوتاتها شرفا ومجـــدا ٠

وفى صالون آل عبد الرازق تألف أول فرع عربى لنادى القلم الدولى ، بل كانت مؤتمرات النادى الدولى تعقد فى بيت عبد الرازق ·

وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق دوحة وارفة الظلال تفياها الحران ـ واللاغب وشادى الأدب وشاعرَ القوافى · بل كان صالونه يكرم النابغين منهم ، وأحد هؤلاء الذين كرمهم صالون عبد الرازق ، الشاعر الشعبى محمود أبو الوفا بل توج تكريمه له بارساله فى رحلة الى باريس ·

وكان صالون عبد الرازق مهوى الأساتذة والأعلام من رجال الفكر ـ والفلسفة يتناقشون ويتحاورون ويخططون لمستقبل القاهرة الفكرى والثقافى ·

كان من رواد هذا الصالون أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، والدكتور طه حسين ، والدكتور محمد حسنين هيكل ، والدكتور عبد الرحمن بدوى ـ وقاسم أمين ·

وفى هذا الصالون ولدت مجلة « السفور » وولدت الفكرة الى تحرير المرأة ووضع لطفى السيد كتاب (الأخلاق عند أرسطو) ، ووضع كتاب (ثورة الأدب) · للدكتور هيكل و (خطرات نفس) للدكتور منصور فهمى وكتاب (فى الأدب الجاهلى) للدكتور طه حسين وكلها هزت القاهرة وفجرت مناقشات تعنف وتهدأ ولكنها فى الحالين خصبة ممتعة باقية ·

وفى صالون عبد الرازق ولدت فكرة الاعتزاز بالشرق فنشأت « الرابطة الشرقية » أى التى تضم أبناء آسيا وأفريقية ·

طويل طويل يروق ويشوق موضوع صالونات القاهرة ·



« صالون مى » :

من الصالونات الثقافية الأدبية فى القاهرة ، « صالون مى » ·

ولم يكن صالون مى ، الصالون النسائى الوحيد فى مصر فقد كان هناك صالون الأميرة نازلى فاضل ··· ولكن الأخير كان صالونا أرستقراطيا للخاصة من أهل المال والفكر وكانت السياسة وأحاديث الاصلاح الاجتماعى تغلب عليه ··· فقد كان من رواده الشيخ محمد

عبده وقاسم أمين ، وسعد زغلول ومحمد المويلحي وحسن عبد الرازق . أما صالون « مي » فكان للأدب والثقافة والفكر ما يدور فيه ، سجالا بين رواده من الأدباء والشعراء ... وكانت « مي » أدبية تعشق الفن شعرا ونثرا وغناء وموسيقى .

وكانت سافره في عصر « طابعه » الحجاب ... حتى لقد كانت الأديبتان اللتان ظهرتا قبل « مي » تكتبان من وراء حجاب وأعني بهما « عائشة التيمورية » و « باحثة البادية » ملك حفني ناصف .

وكان صالون مي يعقد يوم الثلاثاء من كل أسبوع ... وقد دخل هذا اليوم تاريخ الأدب العربي الحديث فقد كان يوما مرموقا مشوقا عند رواد صالونها « بل سجله في » الشعر « الشاعر المصري ؛ اسماعيل صبري في بيتيه .

روحي على بعض الحي حائمة ... كظامىء الطير ، تواقا الى الماء
ان لم أمتع بمي ناظري ، غدا ... أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وكان الشاعر اسماعيل صبري لا يتخلف في هذا اليوم عن الصالون وصاحبته الا لعلة مانعة حتى ليقول :

واستغفر الله من لحظة ... من العمر لم تلقني فيك ، صبا

و « مي » الأديبة ، ريحانة هذا الصالون ، عاشت حياتها في القرن التاسع عشر الذي ولدت على مشارفه في فلسطين سنة ١٨٩٠ ثم انتقلت مع والديها الى لبنان ثم جاءت مصر معهما قبيل الحرب العالمية الأولى فكانت مصر موطنها الثاني وميلادها الثاني في الوقت نفسه أو ميلادها الحقيقي ... بما أتاحته لها من أسباب الازدهار الأدبي وما قابلته « على أرضها من الصفوة الاعلام مما غذى طموحها ، وأمد » له ، فطرح ونجح وتالق .

كان اسمها الأصلي « ماري زيادة » فاقتصرت كما يقول أستاذنا الزيات من اسمها الأعجمي على طرفيه ليكون منهما اسمها العربي « مي » (١) .

وكان صالونها في شارع عدلي ثم انتقلت الى عمارة الاهرام « القديمة » .

كتاب (وحي الرسالة) المجلد الثاني ص ٣٠٨ — ٣١١ .

وكان يتردد على صالونها الشعراء والأدباء بل القضاة فقد كان شيخهم عبد العزيز فهمي باشا من رواد الصالون وان لم يشارك فيه ٠

كان يلتقي في هذا الصالون ، المحافظون والمجددون ٠٠٠ اللغويون مثل شيخ العروبة أحمد زكي ـ والصحفيون ، والنظراء والغرماء ٠٠٠ وعلى ما كان بينهم الا أنهم في صالونها يتركون خلافاتهم عند الباب ٠ وتهـدأ المعارك ويرق العنف ، وتشف الخصومات ، وكأنها آضت الى قرار ٠

وقد كتبت مي ، وكتب الكاتبون عن مي ٠٠٠ فهي « هند » في قصة « سارة » للأستاذ العقاد ، وهي المقصـودة بكتاب الرافعي : (أوراق الورد) ، (رسائل الأحزان) ، (السحاب الأحمر) ٠

وكان لمي وصالون مي في أدب العصر آثار وسمات : يقول الأستاذ الزيات (ألهمت صبرى وأوهمت الرافعي ، وألهبت جبران ، ثم أخرجت من سواد المداد صورا مختلفة الألوان متنوعة الأفنان ، أضافت الى ذخائر الفكر الانساني ، ثورة) ٠

وعاش صالون « مي » نحو ثلاثين عاما ثم انفض السامر ، وتفرق السمار ٠٠٠

ولم يبق الا القاهرة :

القاهرة الجميلة والعبقرية معـا ٠٠٠ وقلما يجتمع الجمـال والعبقرية ٠

اما أن القاهرة جميلة فهذا لا يمترى فيه أحد ٠٠٠ أما أنها عبقرية فدليل هـذا ، وبعد عطائها في العلم والأدب والفن ، أنهـا لا تعترف الا بالمستويات الرفيعة في هذا كله ٠٠٠

يقول الدكتور زكي مبارك :

(في كل بلد من بلاد الشرق يستطيع الرجل الوسط أن يعيش لأن الدنيا في بلاد الشرق لا تزال تتسـع للأوسـاط من الرجال ٠٠٠ أما مصر فليس فيها للرجل الوسط مكان ٠٠٠

العالم الوسط لا يستطيع العيش ٠

والأديب الوسط لا يجد الرزق ٠

والمغني الوسط يضيع ٠

والطبيب الوسط لا يجد ثمن الدواء حين يمرض ٠

والصحفي الوسط لا يملك الوصول الى حيز صغير ٠

والممثل الوسط قد لا يجد الفرصة لشهود رواية صغيرة فضلا ٠ عن القدرة على الاشتراك في التمثيل ٠

القاهرة تقول في كل وقت : كن قاهريا ٠

أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الشعراء لأنهم لم يكونوا في عبقرية شوقي وحافظ وصبري ومطران ؟

أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الكتاب لأنهم لم يكونوا في عظمة محمد عبده وعلي يوسف وعبد العزيز جاويش ومصطفى المنفلوطي ومحمد المويلحي ٠

القاهرة لا تتسع أبدا الغير الأفذاذ الذين يغلبون الزمان) ٠

والحقيقة أن القاهرة الكريمة لا ترد أحدا فهي تتسع أيضا لغير الأفذاذ ولكن على أن يعيشوا في الظل ٠٠٠ وليس ذنبها ٠



وفي القاهرة عرفت المجامع الأدبية ٠٠ وفي القاهرة ارتدت المعارض الفنية ، وتزاوج في نفسي الأدب والفنون ٠٠٠ غدت في حياتي ، صحبة ٠٠٠ واصطبغت كتاباتي ، بالتعدد من تعدد اهتماماتي ٠٠٠ وهي نعمة أحمد الله عليها ٠٠٠ ومن الرزق ما يفوق المال بلا حدود ، كالموهبة ٠٠ انها حظ عظيم وثراء عريض ٠

ومن المواهب بهجة الرؤية ٠٠ وفن التذوق ٠

وفي القاهرة التقيت بقمم رفيعة الذرى ٠٠٠

رأيت العقاد ولطفي السيد وأم كلثوم وطه حسين واحمد حسن الزيات ومحمود تيمور وعبد الوهاب عزام ورامي وبيرم التونسي وزكريا أحمد والسنباطي ٠٠٠

رأيت محمد حسين هيكل ورأيت حسين فوزي ٠

رأيت من رجال السياسة والدبلوماسية محمود فوزي ٠

بلا ألقاب سجلت هذه الأسماء لأنها أكبر من الألقاب ٠٠ كل الألقاب ٠٠٠ أكبر كثيرا ٠٠٠

زرتهم وزاروني في بيتي وأنا لم أتجاوز بعد ، في ذلك الوقت ، مرحلة الشباب وحللت من نفوسهم مكانة كنت أنا نفسي أغبط نفسي عليها ·· كان الزيات يدعوني : ابنته ·· وكان يطلب الى ان أناديه : بابا ··· كان يقول : انه لم يرزق في حياته بنتا ولكنه وجدها كما يتمنى أن تكون ··· وكم كان قوله هذا يغنيني ويشجيني ··· كان ، أبا ، يقلق اذا مرضت ، ويقلق أكثر اذا ولدت ، حتى اذا زال عني رهقي ، كان أول الداخلين الى حجرتي ··· كان يفرح اذا كتبت ، ويسعد اذا تفوقت ، ويفخر اذا تقدمت الصفوف ·

ومن الطريف أن الأستاذ الزيات حين كان يصدر مجلة الرسالة حال سكرتيره بيني وبينه على الرغم من وجود موعد سابق ··· والقصة تبدأ حين كنت طالبة بالسنة الأولى بكلية الآداب جامعة القاهرة · كنت أكتب أبحاثا نقدية في الأدب وأرسلها الى مجلة الرسالة التي يرأسها أحد كتابي الأثيرين الذين كنت أقرأ لهم منذ كنت في العاشرة من عمري ·

وكنت على طراءة السن ، فرحة سعيدة بانتسابي الى كلية الآداب أيام كانت كلية الآداب بأعلامها المرموقين ومواقفهم المرموقة الشامخة في الحياة المصرية لا الأدبية فحسب ··· وكنت أترجم اعتزازي بهـا في امضائي الذي أقرنه دائما باسمها ·

وكانت مقالاتي وأبحاثي في هذه السن الغضــة تنشر في مجلة الرسالة بعناية ظاهرة ··· وعرفت فيما بعد أن الأستاذ الزيات ومعاونيه في المجلة كانوا يحسبونني أستاذة في كلية الآداب لا طالبة قياسا على هذه الأبحاث ··· وشجعني هذا على أن أطلب لقـــاء الأستاذ الزيات وما كاد صوتي يصله عبر أسلاك التليفون أو (المسرة) كما يريد المجمع أو الهاتف كما يقول اخواننا في سوريا حتى جاءني صوته مرحبا متهللا وبسرعة حدد لي موعدا ·

وذهبت في الموعد بعد أن احتشدت طالبة السنة الأولى ، له فاذا بالسكرتير وقد رآني فتاة صغيرة ، يتطوع بالحيلولة بيني وبين لقائه ، متعللا بتعللات سكرتيري المكاتب الكبيرة ··· أتراه حسب اني أنتحل شخصية الكاتبة الجديدة وليست هي التي تقف أمامه ؟ أرجح هذا ·· أو هو بالطبع ·

ومضى على هذه الواقعة أربع ســنوات وتخرجت من كلية الآداب وملأت الصحف والمجلات والحياة الأدبية كتابة ونشرا ·· ومن هذا المقال الذي نشرته سنة ١٩٥٦ بعد تأميم القناة بعنوان (من أجل هذا يحاربوننا)

فاذا بالأستاذ الزيات يرد فى الصحيفة نفسها ـ الشعب ـ مسترسلا فى المعنى مستهلا كل فقرة من فقراته :

(وكما قلت في مقالك الأدبى الجميل يا سيدة نعمات ···) ·

ولم ألبث أن طرق باب بيتى عصر ذلك اليوم طارق ·· وأفتح الباب فاذا بى وجها لوجه أمام سكرتيره الذى صدنى عنه منذ بضع سنوات ، يطلب تحديد موعد ليزورنى من ؟

الأستاذ الزيات ! !

وابتسم لى القدر ···

واتصلت الأسباب ·

وكان الأستاذ العقاد يلقى الناس يوم الجمعة من كل أسـبوع وبينهم صفوة من الأدباء والمفكرين ونخبة من مريديه وتلاميذه وكان يلقانى وحـدى كل سبت من الخامسة الى التاسـعة مساء ··· ويلغى مواعيده فى هذا اليوم من أجلى يحدثنى حديث الأدب والفن والسياسة ·

كنت فى ذلك الوقت حديثة التخرج أحضر رسالة الماجستير عن المازنى رفيق عمره وصديقه على امتداد أربعين عاما لم يكدر صفاءهما كدر ، أو يشب علاقتهما طائف ينال ·

وكان أستاذ الجيل لطفى السيد يطلب من ممرضته أن تدعه معنا زوجى وأنا وترجىء طلباتها فيما يتعلق بصحته حتى الدواء والعشاء كان يرجئهما على الرغم من الحاحنا عليه بتعاطيه ·

ومن الطريف أنه أهدى الى يوما كتابه (صفحات مطوية) وكتب فى الاهداء « الى صديقتى » ··· ثم استدرك فى خفة روح أو كمن يستدرك وقد نظر الى زوجى ، وأضـاف كلمة (الشـابة) أى الى صديقتى الشابة ···

كم سعدت وكم سمعت وكم تعلمت وكم رأيت وكم وعيت وكم أثريت الثراء الذى يرتفع كثيرا على الأرصدة والمكاسب والأرباح مما يشغل عباد المال ·

ويسألوننى فى برامج الاذاعة وفى لقاءات الصحافة فيما يسألونه عن مولدى فأقول المنيا أم التوحيد وأم تل العمارنة حيث أرسل العظيم اخناتون سبحاته ·· المنيا التى كرمت المرأة الى الحد الذى اتخذت معه « نفرتيتى » شعارا لها ··· المنيا المعطاء على مسار التاريخ ·

ولكن اذا كانت المنيا التى أعتد بها ، وأعتز بأمجادها ، مسقط الرأس ، فان القاهرة ، بعد سنوات ، مرفع الرأس ٠

فى المنيا ميلادى الأول وفى القاهرة ميلادى الثانى ٠

فى المنيا نشأت وفى القاهرة شببت وتعلمت وكتبت وتزوجت وأنجبت وحققت ذاتى بألوان من الأمومة ليس آخرها بنوة الأبناء ٠

شريط طويل حافل حياتى فى القاهرة ، والقاهرة فى حياتى ٠ وكم يطيب لى الحديث المفصل عمن ذكرت من الصفوة الأعلام لولا أنى كتبت عن « الأدباء » منهم كتابة مستفيضة فى كتابى (قمم أدبية) وكتبت عن « الشعراء » فى كتابى (خصائص الشعر الحديث) وكتبت عن أعلام الفن الموسيقى ، فى كتابى (أم كلثوم وعصر من الفن) وكتبت عن التشكيليين فى كتابى (فكر — أدب — فن — سياسة) الذى أترقب مولده ولهذا اكتفيت بلمحات منهم اقتضاها السياق فى قصتى مع القاهرة مكتفية بما جاء فى كتبى الأخرى من تحليل متوسع بل افردت لبعض هذه الأسماء النوابغ ، كتابا مستقلا لكل منهم مثل : العقاد — المازنى — رامى — أم كلثوم ٠

قالوا عن القاهرة

قالوا عن القاهرة

قلت وما ارتوى الشوق ·· أتراني وحدي أسيرة القاهرة ؟ لقد أسرت الغرباء أنفسهم فقالوا · والذين قالوا عن القاهرة هذه المرة ، هم الرحالة ·

زار القاهرة في القرن الحادي عشر ناصري خسرو فقال :

(وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار وفي قصر السلطان بساتين لانظير لها ، وقد نصبت السواقي لديها · وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات) ·

أين هي البساتين اليوم ·· لقد غدت بفضل عبقريتنا الهندسية أو الاقتصادية شوارع وعمارات في الهرم والدقي والروضة ·

ويقول ناصري خسرو :

(وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة ·· وهي بعيدة عن بعضها ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر ، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغي لبيته في كل وقت ، من هدم أو اصلاح ، دون أن يضايق جاره) ·

ماذا جرى لنا هل هو الزحام ؟ أم اننا لم نعد نحرص على جمال مدينتنا الجميلة ·· العريقة ؟

ولم يكن ناصرى خسرو وحده ، فى الاعجاب بالقاهرة وبيوتهـا خاصـة فقد التقى معـه فى التسبيح بهـا بعد قرن من الزمان عبد اللطيف البغدادى ٠

يقول البغدادى :

(قلما تجد منزلا الا وتجد فيه بأذاهيج ٠٠ وباذاهيجاتهم كبـار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى أنه يقوم على عمارة الواحـد منهـا مائة دينـار الى خمسـمائة دينـار وان كانت باذاهيجات المنازل الصغار يقوم على الواحدة منهـا دينـار ٠ وأسـواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شـاهقة ٠ ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الأجر وشكل طوبهم على نصف طوب العراق ٠

وأما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وضعا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا ٠٠ أما أولا فان أحواضها يسع الواحد منهـا ما بين زاويتين الى أربع زوايا وأكثر من ذلك يصب فيه ميزابان ثجاجان حار وبارد وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جدا مرتفع فاذا اختلطا فيه جرى منه الى الحوض الكبير وهذا الحوض نحو ربعـه فوق الأرض وسائره فى عمقها ينزل اليـه المستحم فيستنقع فيـه ٠ وداخل الحمام مقاصير بأبواب ، وفى المسلخ أيضا مقاصـير لأرباب التخصص حتى لايختلطوا بالعوام ولايظهروا على عوراتهم وهذا المسلخ بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفى وسـطه بركة مرخمة وعليهـا أعمدة وقبة ٠ وجميع ذلك فروق السقوف وفوق الجدران مبيضـها مرخـم الأرض بأصناف مجزء باختـلاف ألوانه ، وترخيم الداخـل أبدا أحسن من ترخيم الخارج وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الازاج ، جاماته مختلفة الألوان صافية الأصباغ بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه لأنه اذا بالغ بعض الرؤسـاء أن تتخذ دارا لجلوسـه وتناهى فى ذلك لم تكن أحسن منه) ٠

عبد اللطيف البغدادى فى مصر

أما ابن سعيد المغربى فيبدو أن ابن البلد القاهرى اراد معابثته بمزاح زاد حبتين : ولندع ٠٠ القصة لابن سعيد يرويها :

(ولما استقررت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط فسار معى اليها أحد أصحاب القرية ٠٠ فرأيت عند باب زويله من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لى بمثلها ٠ فى بلد ٠

فركب منهـــا حمارا وأشـار الى أن أركب حمـــارا آخـر ، فأنفت من ذلك جريا على عادة من خلفته في بلاد المغرب • فأخبرنى انه غير معيب على أعيان مصر ، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشـارة الظاهرة يركبونها فركبت •• وعندما استويت راكبا أشار المكارى الى الحمار فطاربى وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ودنس ثيـابى وعاينت ماكرهته •• ولقلة معرفتى بركوب الحمار ، وشدة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكارى وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجـاج فقلت :

لقيت بمصر أشـد البوار ... ركوب الحمار وكحل الغبـار
وخلفى مكار يفـوق الريـاح ... لا يعرف الرفق مهما استطار
أنـاديه مهـلا فلا يرعـوى ... الى أن سجدت سجود العثار
وقد مد فوقى رواق الثـرى ... وألحد فيهـا ضـياء النهار

فدفعت الى المكارى أجرته وقلت له : احسانك أن تتركنى أمشى على رجلى •

وهكذا أقال الله ابن سعيد من عثرته أو سجدته وخرج من رواق الثرى الذى أدخله فيه أو دفعه اليه المكارى المصرى المكار ••

وبعد أن يصف ناصرى خسرو جامع عمرو يفضى به الوصف الى السوق •• وكان السوق معلما من معالم المدن فى ذلك العصر •

وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى « سوق القناديل » لا يعرف سوق مثله فى أى بلد ، وفيه كل مافى العالم من طرائف •

ورأيت هناك الادوات التى تصنع من الذبل كالأوعيـة والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها •• ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال ، وهم يحضرونه من المغرب •• وقيل أنه ظهر حديثا ، عند بحر القلزم ، بلور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب •• ورأيت أنياب الفيل ، أحضرت من زنجبار ، وكان وزن كثير منها يزيد على مائتى من •• كما أحضر جلد بقر من الحبشة يشبه جلد النمر ، ويعملون منه النعال •• وقد جلبوا من الحبشة طائرا أليفا كبيرا ، به نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس ••

ويصـنعون بمصر الفخار من كل نوع ، وهو نظيف وشفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهر من الداخل ، وتصنع منه الكئوس

والأقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونونهـــا بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف في كل جهـة تـكون بها ، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد في الصفاء والنظافة

انه الفن ٠٠ هوى مصر وهوايتها منذ القدم ٠٠ لقد شكلت مصر في « العصر العتيق » أى فى الأسرة الأولى والثانية قبل عصر بناة الأهرام ـ شكلت مصر ذرات الصوان وشكلت من البلور الصخرى ألوانا من الآنية فيها الحس الصافي للشكل ٠

ان العصر العتيق أعز فترة في تاريـــخ البشرية كلهـــا لا مصر وحدها ٠

ان رؤوس الســـهام والأوانى ارهاصـــات بفن النحت أى لغـة التشكيل ٠

ان الأوانى المصرية فيها حس له روعة خاصة ٠٠ فيها العطاء الناضج لفن الاناء ٠٠ فيهـا القلب البشرى ينبض لم يعله سـأم ٠٠ سـأم آخـر الحضـــارات ٠

وليست المســـألة التشكيل على ذروته ، ولكن «ادراك القيمة » وهو معنى نريد أن نغرسه ونعمقه في نفوس صـغارنا فان التربية هى غرس التاريـخ فى النشء ولأمـر ما يعبر أولاد البلد عن طحن ٠٠ انسان أو سحقه بقولهم « يهدمه العافية » ٠

ان التربية الحقيقية تعطى العافية ٠٠ القوة ٠٠ الأمل ٠٠ الحلم ٠٠ الارهاصات أى ٠٠ همس الوجدان ٠

ان أزمة الانسان المعاصر أن وجدانه لايضاهى تقدمه التكنولوجى فملك الآلة ولم يملك السلوك وحسن الاستعمال ٠

ان الأهرام ليس منجز مصر الوحيد فاللغة والكتابة منجز حضارى ، كالعمارة ، رائع ٠ الادارة منجز حضارى بارع ٠

الرى منجز حضارى كبير ٠

التشكيل ، الذى بهر عبد اللطيف البغدادى ، منجز حضارى أنيق

هنا على هذه الأرض نضج الانسان ٠٠ والنضج وعى ٠٠ والوعى سعى ٠٠ انه تحريك القوى فى كل مجال ٠٠ وهذا بعينه حدث فى مصر ٠

وجـاء القاهرة ابن خلدون المؤرخ الفيلسوف العـالم الاجتمـاعى

الأديب الذى يعد قمة فى تاريخ الحضارة الاسلامية وفى تاريخ الحضارة الانسانيـة وأحد القلائل الأفذاذ الذين يجمع الشرق والغـرب معـا على اكبارهم ٠

استشرف ابن خلدون الى القاهرة فى القرن الثامن الهجرى بعد أن شارك فى أحداث تونس السياسية والاجتماعية حتى نهـاية الحلقـة الخامسة من عمره وناء بما حمل فأزمع الرحيل الى مصر ٠٠ الى مجالات القاهرة كعبة الحضارة الاسلامية بعلومها وأعلامهـا وكأنه كان يقتفى أثر ابن بطوطه الذى سبقه اليها قبله بنصف قرن ٠

وما كاد ابن خلدون يدخـل القاهـرة حتى هتف وقد وقع فى بحران من الحماسة السكرى يقول :

(رأيت حاضرة الدنيا وبسـتان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام وكرسى الملك تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطيء النيل نهر ، ومدفع مياه السماء يسقيه العلل والنهل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه ، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، أسواقها تزخر بالنعيم)٠

وفى القاهرة تطلع ابن خلدون الى الجامع الأزهر وهناك تحلقت حوله الندوة ٠ يقول أبو المحاسن بن تغرى بردى :

(واستوطن — ابن خلدون — القاهرة وتصـدر للاقراء بالجامع الأزهر مدة ، واشتغل وأفاد) ٠

ويقول السخاوى :

(وتلقاه أهلهـا — اى أهل مصر — واكرموه واكثروا ملازمتـه والتردد عليه ٠ بل تصدر للاقراء بالجامع الأزهر مده ، ويقول عنـه الحافظ بن حجر العسقلانى :

(وكان مسنا فصيحا ، حسن الترسل وسـط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة) ٠

ثم اسند اليه السلطان التدريس بالمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو ٠ وقد استهل عمله فيها بخطبه طريفة حفلت بالسجع وهو صاحب الأسلوب المتحرر من قيود البديع ٠ ولست أدرى ما الذى جعـله يلتزم

السجع في ذلك اليوم .. لعله لون من التعبير عن الفرحة بمنصبه الجديد ..

أليس طريفا أن يقول ابن خلدون صاحب المقدمة :

(ولما سبحت في اللج الأزرق ، وخطوت من افق المغرب الى المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق ، وشجرة الملك التي اعتز بها الاسلام تهتز في دوحة المعرق ، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق ، وينابيع العلوم والفضائل تمد وشلنا من فراته المغدق .. أولوني عناية وتشريفا وغمروني احسانا ومعروفا ، وأوسعوا بهمتي ايضاحا ونكرتي تعريفا .. ثم .. الخ) .

وفي سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م . عين قاضيا للقضاة المالكية . ومع ما لهذا المنصب المرموق من مكانة رفيعة ، فان ابن خلدون لم يقل فيه خطبة مسجوعة ــ يبدو اني وقعت ، انا ايضا ، في السجع ــ بل انطلق على سجيته يقول بلا تزويق :

(وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه الى أن سخط السلطان على قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزعات الملوكية فعزله واستدعاني للولاية في مجلسه وبين امرائه فتفاديت من ذلك وأبى الا مضاءه) .

ولا يخفى مافي هذه العبارة من سخرية من الملوك ذوي(النزعات) .. على أنه لم يلبث أن عزل في قول بعض المؤرخين ، أو قبل رجاؤه بالاعفاء ، أي قبلت استقالته بلغة عصرنا ..

لم يكن قد انصرم عام على تولية القضاء حين أقصي عنه أو استقال منه فعاد الى التدريس وخلص الى التأليف وفيما بين هذا تكرر العود والاقصاء ، أو العزل والاسناد .

حاول ابن خلدون أن يوثق عرى الصلة بين مصر والمغرب بالصلات فكتب الى سلطان تونس يحثه على التودد الى ملك مصر بالهدايا والالطاف ، فتدفقت الهدايا على القاهرة من سلطان تونس ، وأمراء المغرب ويبدو أنها كانت كثيرة الى درجة تخصيص يوم لعرضها .. يوم يقول عنه ابن خلدون انه شعر فيه (بالفخر وحسن الذكر بما تناوب بين هؤلاء الملوك من السعي في الوصلة الثابتة على الأبد) .

وهكذا استقبلت القاهرة ابن خلدون وأفسحت له مكانا فيها في قاعات الدرس وساحات القضاء ، وحظي فيها باقبال الناس وتقدير الحكام وطيب المقام .

أكرمت مصر وفادته وأسبغت عليه نعمة اثارت حسد مواطنيه انفسهم فابن عرفه مفتى تونس يقول :

(كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددنا بالضد من ذلك) ..

هذا حين اثنى عليه وانصفه من العلماء والمفكرين المصريين أعلام منهم : المقريزى فى كتابه (السلوك) و (درر العقود الفريدة) وأبو المحاسن بن تغرى بردى فى منهله الصافى ، والقلقشندى فى موسوعته : صبح الأعشى) .

ان أعظم اعمال ابن خلدون مقدمته التى كتبها لتاريخه . وهذه المقدمة كتبها قبل قدومه الى مصر ، ولكن مصر أتاحت لابن خلدون بما وفرته له من الهدوء وبسطة الرزق وأهم من هذا كله المناخ العلمى، مصر بهذا كله أتاحت له ان يراجع هذه المقدمة وان ينقحها ويصقلها ويضيف اليها أحداث سبعة عشر عاما فقد كان وقف فيها عند سنة ٧٨٣ هـ فبلغ بها فى مصر الى نهاية القرن الثامن الهجرى وبلغ بها وهذا هو الأهم ـ من حيث التفكير والتحبير مبلغا باقى الأثر .

لم يكن ابن خلدون فى تاريخه راوية يسرد الأخبار سردا ، بل كان يتعمق الأحداث ويعلل الظواهر الاجتماعية ويفلسفها ناقدا محللا .

انه فى مقدمة ابن خلدون من الآراء والنظريات الفلسفية والاجتماعية والسياسية ما سبق به (ميكافيللى) و (فيكو) الذى يحاول الايطاليون ان يجعلوه أول اجتماعى أوروبى ، ومونتسكيو وآدم سميث ، واوجست كونت ممن جاءوا بعده .

وابن خلدون بتراثه ، فى عين الغرب يقف فى صف مع الفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسى ويعتبره (فون كريمر) مؤرخا للحضارة بما فصله من حديث عن النظم السياسية ومذاهب الحكم والاجتماع والاقتصاد وألوان العلوم والفنون والآداب .. ويؤيده فى هذا الرأى الكاتب الألمانى (فون فيسندنك) .

ويراه (دى بوير) فيلسوفا لا يقل شأنا عن ابن سينا والغزالى وابن رشد وابن طفيل ..

و (لدفيج جمبلوفتش) يرى كما يقول الأستاذ عبد الله عنان ان ابن خلدون العالم الاجتماعى سبق كثيرا من أقطاب الاجتماع المحدثين

فهو قد اهتدى الى نظرية الأجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الأسر وانحلالها قبل ان يعرضها أوتوكار لورنتس في أواخر القرن التاسع عشر . ويقول جمبلوفيتش ان ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الاجتماعى حينما يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الاجتماعية وكيف أن هذه الجماعات نفسها انما هى ثقة الوسط . وأقواله فى هذا المقام عن الأجناس الغالبة فى منتهى الأهمية .. وفى أقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل على أنه عرف (قانون التشبيه بالوسط) قبل أن يعرفه داروين بخمسة قرون وفيما يقوله عن تشبيه الانسان بالحيوان فى الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة ، ما يدل على أنه عرف مبدأ (وحدة المادة) قبل أن يعرف هيكيل .

أما الأستاذ ناتانيل شميت الأستاذ بجامعة كورنل بأمريكا فيرى ابن خلدون مؤرخا يمكن أن يوضع فى صف مؤرخين مثل ديودوروس الصقلى ، ونقولاوس أو ترجوس بومبيوس ممن كتبوا فى القرن الأول الميلادى أو مؤلفين من كتاب القرن الثامن عشر مثل جالنيرر وشلتسر ، هذا مع كونه يتفوق عليهم سواء فى الانتفاع بالمصادر القديمة أو الرواية الأصلية . والمؤرخ المعاصر ارنولد توينبى يعتبر ابن خلدون سابع سبعة وهم :

« توكوتيدروس (ثيوديد) ويوسيفوس ومكيافلل ، ويوليبيوس ، ولورد كلارندون ، وابن خلدون » .

ويرى توينبى مقدمة ابن خلدون بما فيهما من فلسفة التاريخ (أعظم عمل من نوعه ، ابتكره أى عقل فى اى عصر ، أو فى أى بلد) ..

ويرى (النامبرا) مقدمة ابن خلدون (نظرية كاملة للحضارة) . ويقول فيها يروى عنه الأستاذ عبد الله عنان (كفى أنه فى القرن الرابع عشر ، حينما كانت دراسة التاريخ الأوروبى فى منتهى النقص ، ومنتهى البعد عن آراء كالتى يعرضها ابن خلدون ، ويدافع عنها ، قد كتب كتابا كالمقدمة درست فيه أو افترضت كل المسائل ، التى غدت فيما بعد ، على تفهمها بمختلف الصور ، هى المهمة الجوهرية للمؤرخين المحدثين) .

وقد عاش ابن خلدون فى القاهرة بضعة وعشرين عاما وتوفى بها وكانه آثرها دار بقاء ومثوى خلود . ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر .. وقد وصل الاثرى المصرى المغفور له الأستاذ حسن عبد الوهاب الى تحديد موقعها .

ما أحق هذا المكان أن يكون مزارا يقصده عارفو فضل ابن خلدون وتلاميذ فكره ــ وما أكثرهم وهو بهذه المنزلة خليق ..

هؤلاء بعض أهل الشرق من الرحالة والمفكرين . أما أهل الغرب فقد أولعوا أيضا بالقاهرة ..

فصاراى هنا أن آتى ببضعة أمثلة .. ومن الأجانب الذين عشقوا القاهرة « ادوارد وليام » فى كتابه :

The Manners and Customs of the Modern Egyptians.

والكتاب (١) يتغزل القاهرة ويستميلها .. يهواها ويستهويها .. ومنهم « جاستون فييت » (٢) الذى يقول (على طول الطريق من الأسوار الشمالية للمدينة الفاطمية الى حدود المدينة الجنوبية ، يصاحبنا نغم متناسق بخاتمه مهيبة حيث تسمع لحنا لنشيد رفيع فخم ، حين تواجه أسوار مسجد السلطان حسن ، أعيننا ، فى تحد قوى) ص ١١ .

ومنهم « ديزموند استيوارت » فى كتابه « القاهرة » الذى يقول :

(انها مدينة مسلمة نشأت بفضل دين محمد النبى العربى . هى عند المسلمين لاتقل جلالا عن مكة ، التى تتجه اليهما قبلة الصلاة فى مساجد القاهرة ، ولا عن المدينة مثوى الرسول) ص ٨٥ .

ويقول عن الطابع الاسلامى فى القاهرة :

(حقا كل من زار بورصة (فى الاناضول) ورأى عمائرها لايسعه الا الاعجاب بالوانها الزاهية ، وان عشاق نقاء الشكل فى الفن المعمارى يهللون لقصر الصيد المسمى بالأخيضر (فى كربلاء) أو لبقايا قصور سامرا (سر من رأى) التى بنيت فى القرن التاسع ، وان ضريح تاج محل الذى تنعكس واجهته على الماء له من المعجبين به قدر ما له من الهائمين بالتقاط صورته ولكنها جميعا اما أبنية فرادى ، واما ــ كما هو الحال فى بورصة ــ أبنية من نتاج عصر واحد . أما القاهرة فهى وحدها التى تشهد بتطور متصل قرنا بعد قرن ، يتدرج من السذاجة عبر البساطة الى تعقيد التركيب ، ومن الازدهار العقلى الى الذبول السقيم . وهكذا فان سجل حضارة بتمامها يتكشف على الحجر والآجر والخشب

---

(١) نقل هذا الكتاب الى العربية الأستاذ عدلى طاهر نور باسم : (المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم) .

(٢) (القاهرة مدينة الفن والتجارة) ترجمة الأستاذ مصطفى العبادى .

طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرنا هو الآن معروض للناظرين . وقد كانت بغداد خليقة بأن تنافس القاهرة ، ولكن بغداد ضربهـا المغول بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامه اللطيف . لذلك اذا أردنا أن نتذوق الفن الاسلامي بغير أن تفسده رتابة التفاصيل كما في قصر الحمراء ، وبغير أن يشوهه زخرف مبالغ فيه ــ كما في عمارة الهند ــ فينبغي لنا ، كما يقول ستانلي لين بول ــ أن نتأمل مساجد القاهرة واضرحتها) .

وكتب عن القاهرة المهندس الفرنسي Hector Horeau في كتابه :

المطبوع ١٨٤١ Panomama D'Egypte et de Nubie.
تحدث عن القاهرة الحديثة دون أن تغيب عنه « منف » و « والفسطاط » و « العسكر » و « القطائع » ألم أقل انها « أم المدائن » ؟

وكتبت « لادى دف جوردوف » التى أحبت مصر حبا جما وترنمت باسمها حتى النهاية بل بلغ بها الخيال حدا (تحدث عن نفسها كمصرية عربية واعتبرت فيما اعتبرته ، أنها مسلمة) .

أما القاهرة فقد كتبت عنهـا ولما ينصرم على وصولها اليها غير أيام أنها (قد انغمرت في الف ليلة وليلة الحقيقية ، وأن الحياة في القاهرة ما هي الا حياة ذهبية بلغت الحد الأقصى من التسامي والشعر بل الوجود فيها ليس الا خليطا من التعاطف والأدب الجم) ..

ومتى كان ذلك ؟ تاريخ الرسالة ١١/١١/٦٢

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى   في حب مصر كثيرة العشاق

مصر الكل .. ومصر القاهرة .

أما أبناء مصر فقد كتب منهم عن « القاهرة » القدماء والمحدثون . أبرز القدماء الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى صاحب (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) .. فقد وقف في كتابه على من كان بمصر من الصديقين والعلماء والائمة وحفاظ الحديث والفقهاء والزهاد

---

(١) ص ١٣٤ من الترجمة العربية قام بها الأستاذ يحيى حقى .
(٢) كتاب (رسائل من مصر) .

والمتصوفة والقصاص والمؤرخين والشعراء والأدباء بل الخلفـــاء والأمراء والوزراء والقضاة ·

وقبل هؤلاء جميعا من دخلها من الأنبياء ·· ومن ولدوا بها وكانت لهم مربى ومباءة حضارية ·

ولم يكتب السيوطى هذا الكتاب من فراغ فقد استقى معلوماته من سلسلة طويلة من المراجع والمصادر ، نص عليها فى صدر الكتاب ، وأشار اليها فى تضاعيفه ·

مدارس مصر ـ مساجد مصر ـ آثار مصر ـ نيل مصر ـ معـــادن مصر ـ جزر مصر ـ فواكه مصر ـ نبات مصر ·

ولم يترك السيوطى شيئا الا كانت له عنده ، وقفة تطول أو تقصر ولكن لا تقصر أو تحول ·

ومعظم القول فى هذا كله يطوف بالقاهرة ·

··· ··· ··· ··· ···

أما المحدثون ، فقد كتب منهم عن القاهرة :

الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى فى أعز كتبه (١) ·

د· حسين فوزى فى كتابه (سندباد مصرى) ·

د· عبد الجليل راضى فى كتابه (واقاهرتاه) ·

أ· حافظ محمود فى كتابه (القاهرة بين جيلين) ·

أ· شحاته عيسى ابراهيم فى كتابه (القاهرة) ·

أ· جمال الغيطانى فى كتابه (ملامح القاهرة فى ١٠٠٠ سنة) ·

هذا غير كتب بين التاريخ والحضارة ·· بين العمارة والأدب مثل كتب المرحوم حســـن عبد الوهاب وكتاب الأســتاذ عبد الرحمن زكى (القاهرة) ·

هذا غير الذين كتبوا عن القاهرة من خلال أعمالها وأعمالهم ·

مثل الأدباء والقصاصين والمؤرخين والجغرافيين ·

---

(١) من هذه الكتب التى صورت القاهرة (ابراهيم الكاتب) ، (ابراهيم الثانى) ، (صندوق الدنيا) ، (من النافذة) ·

فيجيب محفوظ لم يكتب كتابا باسم القاهرة ولكن القاهرة كانت تمتزج بدمه حين كتب قصصه (خان الخليلي) و (زقاق المدق) وثلاثية : قصر الشوق ــ بين القصرين ــ السكرية •

وتوفيق الحكيم كان يكتب عن القاهرة حين كتب (مسرح المجتمع) . و (المسرح المنوع) •

حتى (عوالم الفرح) كن فى تصويره ، لمحة من القاهرة •

وكتب عن القاهرة الأستاذ (فتحى رضوان) فى كتابه (خط العتبة) (١) •

والشاعر أحمد رامى ، بأغانيه ذات اللهجة القاهرية العذبة ، كان يسمع القاهرة ويسمع القاهرة •

والشاعر ابراهيم ناجى صاحب ديوان (ليالى القاهرة) •

وغنى للقاهرة فاطرب ، الشاعر صالح جودت ••

حتى ابن البلد فى الأسماء التى يطلقها على أطفاله فى البيت ، وعلى دكانه خارج البيت ، انما يردد أسماء القاهرة •• واذا عظم المرء ، تعددت أسماؤه •

حتى أحياء القاهرة ظفرت بالكتابة عنها فكتب الدكتور طه حسين عن حى الأزهر ، وحياة الأزهر وأيام الطلب ، والطلاب (٢) •

وكتب الأستاذ العقاد عن حى مصر الجديدة (٣) •

وكتب الأستاذ سنده الكيلانى عن « الأزبكية » •

لقد كتب عن القاهرة ، الذين كتبوا عن مصر باعتبارها كما يقول الدكتور جمال حمدان :

(عاصمة تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز الى جوهر كيانه حضاريا وماديا ، جغرافيا وتاريخيا ، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى) •

وباعتبارها ، مصر ، اسما •• فان القاهرة يطلق عليها المصريون والعرب اسم « مصر » •

---

(١) من سلسلة الألف كتاب •
(٢) كتاب (الأيام) للدكتور طه حسين •
(٣) كتاب (فى بيتى) للأستاذ عباس محمود العقاد •

وكتب عن القـــاهرة أولئك الذين كتبوا عن (الفســـطاط) و (القطائع) و (العسكر) فهي هؤلاء جميعا ، وان اختلفت أسماء . وهي بقدرتها الأولى على الاستيعاب ، احتوتها وضعا وموضعا ٠٠ تاريخا وموقعا ٠

انها أم المدائن ٠

وليس اعتباطا بل اغتباطا أن يقول أوجين فرومفتان :

(بغبطة أدخل هذه المدينة الفريدة)

ومن أجمل الكتابات الحديثة عن القاهرة ما كتبه الأستاذ يحيى حقى في مقدمة ترجمته لكتاب ديزموند استيوارت (١) ، والدكتور جمال حمدان في بحثه الذى يتصدر الترجمة ، كما كتب عنهـــا فصلا زاخرا وباهرا ثريا ، بها حفيا فى المجلد الرابع من موسوعة (شخصية مصر) ٠

يقول الأستاذ يحيى حقى :

« لم يستطع معول التنظيم الغشوم ، ولا أكداس العمارات الشاهقة المسلحة بالأسمنت ، ولا غوائل الشوارع الطارئة المفروشة بالأسفلت ، ولا أحياء حجارة الدومينو تنبت كالفطر وتتضخم كالسرطان ، شقاء الى القلب كالطعنة ، النجلاء ، أو لفا على جوانب ، غلاف فوق غلاف ، ولا ظل قبعة قميئة مستعارة وضعتها على الرأس ، يد عمياء متلهفة على التقليد ٠٠٠ لم يستطع شيء من هذا كله أن يمس طابعها الأصيل وجلالها المكنون هبة لها من حضارة الشرق ، ونفحة من سمائه ، كلاهما خارج عن متناول الزمن وعواديه ٠ ان كنت تأنس لجمالها حين يطـــوف به خيالك اذ هو بالأمس فى قصره ، فى عز مجده فانك أشد أنسابه وأنت تزوره اليـــوم فتراه منكمشا منزويا فى صومعته ٠٠ بقى من الثمرة سر الحياة والديمومة فى نواتها الصلبة ، هيهات أن تتحطم ٠٠ انها صلابة الدفاع المستميت فى آخر خندق ، وهذا التجمل بالستر اذ الحب فاتر ومس أشد نبلا من أريحيتها ، وأغداقها اذ هى مأخوذة بالأحضان والدنيا مقبلة ٠٠

لم تستطع الأسطح المتعالية يوما بعد يوم أن تحجب مآذنها العديدة ، باقية هى ناحية بشممها وشموخها ، ولا الضجة الهائلة التى اندلقت عليها أن تخنق ضراعات هذه المآذن ، يخشع لها القلب وتطرب الاذن عند مولد كل فجر ٠٠

---

(١) مقدمة كتاب (القاهرة) تأليف ديزموند ستيوارت ترجمة الأستاذ يحيى حقى ٠

جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ • آية في فن العمارة ، في ذروة الصدق ، تصون داخلها أمثلة رائعة للجمال ، تحكي في صمت قصة آلاف من الفنانين بناة الحضارة عملوا في ورع وهم متطهرون ثم مضوا لا يعرف أسماؤهم أحد ، لا يذكرهم أحد ، حق لهم أن يتضاعف ثوابهم ، جزاؤهم عند رب ، بهم عليم •

وأسواق لاتزال متشبثة بأمكنتها ، كان لها جذورا ضاربة الى الأعماق ، هيهات أن تنقصف أو تذوى ، شاخت ولكنها لا تزال متشحة بأطياف من وسامة شبابها وزينة عرسها • تغير عن يمين ، عن يسار ، من حول • كائن واحد لا يتغير ابن البلد بكرمه ومروءته ، بلطفه وظرفه ، ببشاشته وخفة دمه ، بنكاته وقفشاته ، بذكائه وحضور بديهته ، هو الذى رقق العامية على لسانه وأثراها بأبدع مجاز واستعارة ، ساخر وحكيم ، تحسبه لطيبته غرا ولكنه « حويط » يلقط العملة الصحيحة ولو ممسوحة من بين عملات كثيرة زائفة « ولو براقة » لا ينطلى عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح •

هذه هي القاهرة ، ان كنت لا تعرفهـا يا أخى فاعرفهـا ، اذن ستحبها ، ستعشقها ، ستنضم الى زمرة عشاق لها كثيرين ، هاموا بها ولاء والتحاما ، منذ أن ألقى فى نهر النيل عندها ، ما تخلف عن ولادتهم من مشيمة مصرورة في منديل ، عشق بالغريزة •• بالارث •• بالقسمة والنصيب والحمد لقدر لا تعلل تصاريفه •••)

لكأنه يتحدث ، أو هو كذلك ، يتحدث عن قاهرة اليوم •

••• ••• ••• ••• •••

ويقول الدكتور جمال حمدان عن القاهرة :

(اذا عدت المدن العواصم العظمى في العالم ، فالقـاهرة واردة بالتأكيد في العشرة الأولى أو العشرة ونيف • وهى المدينـة الأولى ـ المطلقة ـ فى قطاع هائل متصل من العالم القديم قد يجاوز ثلثه مساحة ويتعدى آفاق القارة الافريقية الى تخوم الألب ووسط آسيا • بل ان بضعة لا يستهان بها من الدول الافريقية لتقل سكانا ـ سكان كل منها أقصد ـ عن حجم القاهرة كثيرا أو قليلا ، وذلك دون أن نذكر أن القاهرة تستأثر وحدها بنحو نصف سكان العواصم الافريقية الخمسين مجتمعة !) •

ويقول :

(لقد خرجت القاهرة عن وصاية الجبل الأبوية ، وانساحت من المقطم الى الهرم ومن الصحراء الى الصحراء ، ومن حلوان الى شـــــبرا الخيمة ، وبعد أن بدأت بحدود صارمة كالخط الهندسي هي سور المدينة أصبحت تتخلل المزروع وتخلخله كمدينـة بلا حدود • ومن السهل أن تتتبع انعكاس هذا كله رقميا فى تعداد السكان ، ولكن يكفى هنا أن نذكر أن المدينة التى بدأت مع محمد على ربع مليون وانتهت معه ثلث مليون قد تعدت الآن الخمسة ملايين) •

وأضيف « تعدت العشرة ملايين » •

وهي عنده وعندى أولا وأخيرا العاصـمة التي تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز الى جوهر كيانه حضاريا وماديا ، جغرافيا وتاريخيا ، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى) •

من مؤلفات الكاتبة

ـ شخصية مصر	الهيئة العامة للكتاب
ـ رحلة الشرق والغرب	الهيئة العامة للكتاب
ـ أدب المازنى	الهيئة العامة للكتاب
ـ أم كلثوم وعصر من الفن	الهيئة العامة للكتاب
ـ من عبقرية الاسلام	دار المعارف
ـ الأدب والحضارة	دار المعارف
ـ الجمال والحرية والشخصية الانسانية فى أدب العقاد	دار المعارف
ـ أحمد رامى (قصة شاعر وأغنية)	دار المعارف
ـ قمم أدبية	عالم الكتب
ـ رسائل الى ابنتى	عالم الكتب
ـ النيل فى الأدب المصرى	عالم الكتب
ـ مشروع هضبة الأهرام أخطر اعتداء على مصر	عالم الكتب
ـ شعب وشاعر (أبو القاسم الشابى)	عالم الكتب
ـ خصائص الشعر الحديث	دار الفكر العربى
ـ مصر تدخل عصر النفايات (بالاشتراك مع الدكتور حامد ربيع)	دار الفكر العربى
ـ التراث والحضارة	دار الهلال
ـ أزمة الشباب وهموم مصرية	دار الحرية
ـ الاسلام وانسان العصر (العودة الى المنبع)	دار غريب
ـ صناعة الجهل	دار المستقبل العربى

فهرس

الصفحة

كلمـــــة ٥

القاهرة فى حياتى . . . . ٧ ـ ٥٢

نقطة تحول « حلوان الثانوية » كانت القاهرة ـ أهل البيت ـ خان الخليلى ـ أسلوب القاهرة ـ السلطان الحقيقى ـ الامام الليثى ـ الأزهر الشريف ـ جبـل المقطم ـ حديقـة الأزبكية ـ المسرح ـ الأوبرا ـ المقاهى الفنية ـ الاحتفال بوفاء النيل ـ

القاهرة بين الأمس واليـوم . . . . ٥٣ ـ ٩٥

صور غابت عن القاهرة

الفطاطرى ـ بائع العرقسوس ـ الماكينة ـ الفوتغراف ـ الزار ـ آنية النحاس ـ المحمـل ـ الحنطور ـ شقة للايجار ـ عفريت الليـل ـ الحمام ـ أقوال يومية ـ القافية ـ الأغانى ـ الخلخال ـ طاسة الخضة ـ الفران ـ الحدائق ـ الهدوء ـ

رمضان فى القـاهرة . . . . ٩٧ ـ ١٣٠

تقاليده واستقباله ـ المســـحراتى ـ المرق والحلق والحلق ـ القطايف والكنـــافة فى الأدب ـ فانوس رمضان ـ الحواتيت فى رمضان ـ فستان العيد ـ الثلث الأخير من رمضان ـ لقاء الصفوة ـ الأستاذ الزيات ـ الأثرى حسن عبد الوهاب ـ أحمد رامى ـ زكريا أحمد ـ بيرم التونسى ـ مولد كتابى ـ

الصالونات الأدبية . . . . ١٣١ ـ ١٣٩

صالون آل عبد الرازق ـ صالون مى ـ المجامع
الأدبية ـ الاستاذ العقاد ـ

قالوا عن القاهرة . . . . ١٤١ ـ ١٥٦

ـ ناصرى خسرو ـ البغدادى ـ ابن خلدون ـ ادوارد
وليام لين ـ ديزموند ستيوارت Hector Horeay
ـ السيوطى ـ
ـ د . حسين فوزى ـ د . عبد الجليل راضى ـ
حافظ محمود ـ شحاته عيسى ابراهيم ـ جمال
الغيطانى ـ حسن عبد الوهاب ـ عبد الرحمن زكى ـ
ـ نجيب محفوظ ـ توفيق الحكيم ـ فتحى رضوان ـ
أحمد رامى ـ ابراهيم ناجى ـ صالح جودت ـ
د. طه حسين ـ الأستاذ العقاد ـ سند الكيلانى ـ
د . جمال حمدان ـ الاستاذ يحيى حقى ـ

د . نعمات أحمد فؤاد

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٤٢٧٢

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٠٥٤ ـ X

كل من يؤلمه تشويه جمال الفاتنة أم المدائن عاصمتنا القاهرة ويتمنى أن يراها كما كانت :

- الأحياء الشعبية بمذاقها الخاص .
- أهل البيت على أرضها وفى وجدانها .
- الأزهر الشريف .
- أسلوبها فى الفن والصناعة وحياة كل يوم.
- صالوناتها الأدبية .
- مواقفها مع الحكام.
- حديقة الأزبكية والأوبرا والمسرح ومنتديات شارع عماد الدين من مفاتن القاهرة.

من يريد أن يرى الصور التى غابت عن القاهرة .

من يريد أن يراها فى عين الغرباء من شرق وغرب ممن كتبوا عن القاهرة ، وقالوا عن القاهرة .

ذكريات الكاتبة مع أعلام الأدب والفن :

العقاد ـ أحمد لطفى السيد ـ الزيات ـ أحمد رامى ـ بيرم التونسى ـ زكريا أحمد ـ السنباطى .

دنيا عريضة من الصور والأعلام والثقافات فى هذا الكتاب .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠ قرش